الفصل الثالث

تحليل أصل الإيمان بالله عز وجل من خلال قصة الفتية المؤمنين

٣-١ تعريف الإيمان:

الإيمان في اللغة: معناه التصديق ضده التكذيب، وقد يأتي بمعنى الثقة[٤٦].
وفي الاصطلاح: التصديق المتضمن القبول والإذعان، وهو تصديق بالجَنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، ويشمل القول والعمل والنية، لا يجزئ واحد من الثلاثة عن الآخر[٤٧].
وكثيرا ما ترد كلمة "الإيمان" في الاصطلاح الشرعي، ويراد بها المعنى اللغوي نفسه، فتطلق على مطلق التصديق، سواء كان تصديقا بحق أو باطل، وكثيرا ما يراد بها معنى أخصّ صار في العرف الشرعي حقيقة جديدة، فيراد بها خصوص التصديق بالخبر عن الغيب المترل على الأنبياء، وضابط ذلك أن ننظر في استعمالها، فإن كانت متعلقة بشيء بأن قيل: إيمان بكذا، كانت بمعناها اللغوي البحت، أي مطلق التصديق، ويُقابَلُ بالتكذيب، وأما إذا ذكرتْ بدون متعلق أو مقيَّدة بخبر السماء عن طريق الأنبياء، فالمراد بها تلك الحقيقة الشرعية الخاصة، وهي التصديق بالحق والانقياد إليه، ويُقابَل بكلمة الكفر، والكفر لا يختصّ بالتكذيب، فالإيمان يكون تصديقا وموافقةً وموالاةً وانقياداً، فهو إذن حقيقة "الاعتقاد"[٤٨].

والمقصود بالإيمان بالله: هو الاعتقاد الجازم من دون ريب بوجود الله، وبقدرته المطلقة على الخلق والتدبير والتصرّف، وأنه المتصف بصفات الكمال كلها، المترّه

---

[٤٦] ابن منظور، مرجع سابق، مادة (أمن) ١/١٤٠-١٤٣.

[٤٧] ابن أبي العز الحنفي، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، شرح العقيدة الطحاوية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١/٣٣٢.

[٤٨] انظر قولا حول معنى الإيمان وما اعتُرض على دعوى الترادف بينه والتصديق: ابن أبي العز، مرجع سابق، ٢/٤٧٠-٤٧٣.

عن كلّ نقص، وهو المستحق وحده لكل أنواع العبادات، من صلاة،وصوم، ودعاء، ورجاء، وخوف، ونحوها، وأما عبادة غيره سبحانه وتعالى فباطلة[٤٩]، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾[٥٠]. ويشمل معنى الإيمان بالله سبحانه وتعالى ثلاثة أنواع من التوحيد وهي؛ توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات[٥١].

والإيمان بالله أساس العقيدة الإسلامية وجوهرها، وعليه يقوم ما سواه من عقائد هذا الدين، كالإيمان بالملائكة، والكتب المنزلة، والرسل، واليوم الآخر، وفيما يلي تفصيل الكلام عن كل نوع من أنواع التوحيد:

٣-٢ توحيد الربوبية

أولاً: تعريفه لغة واصطلاحا والمقصود به.

أ. **الربوبية لغة:** مأخوذة من لفظة الربّ، "والربّ يُطلق في اللغة على المالِك، والسيّد، والمدبّر، والمربّي، والقيّم، والمُنعِم"[٥٢].

---

[٤٩] محمد نعيم ياسين، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، الإيمان؛ أركانه. حقيقته. نواقضه، المنصورة: دار الوفاء، ص١٠.

[٥٠] سورة الحج: الآية ٦٢.

[٥١] وقد أعاد بعض العلماء هذه الأنواع الثلاثة للتوحيد إلى نوعين؛ نوع في العلم والاعتقاد، ويدخل فيه توحيد الله عز وجل في الربوبية وتوحيده تعالى في الأسماء والصفات، ونوع آخر في الإرادة والقصد، ويدخل فيه توحيد الله في الألوهية. انظر: ابن أبي العز، مرجع سابق، ص٨٨.

[٥٢] ابن منظور، مصدر سابق، مادة (ربب)، ١٥٤٦/٣. والربّ : كلمة في الأصل مصدر فعل ربَّ، يُقال لغةً: ربَّ فلانٌ الولدَ أو الصبيَ أو المهرَ مثلاً يرُبُّه ربًّا، كما يقال : ربَّاه يُربِّيه تربية. ثم استعيرت كلمة (الرب) من المصدرية إلى اسم الفاعل، فصارت تطلق كلمة (الرب) بمعنى مالك الشيء والسيد والمدبر والمربِّي).

ب. **الربوبية اصطلاحا:** هي الوصف الجامع لكل صفات الله ذات العلاقة والأثر في مخلوقاته، فالربوبية إذن اسم مصوغ للدلالة على الصفات التي يتصف بها الرب الخالق جل جلاله، أي: الصفات التي تُفهم من معنى كونه ربا. فاسم الربّ هو الاسم الدال على كل هذه الصفات، إذ التربية الحقيقية لكل شيء في الوجود سوى الله عز وجل سواء بخلقه ابتداءً أو بمتابعة بقائه وإمداده ورعايته وتنميته دواما، هي صفة من صفات الله عز وجل لذلك كان سبحانه هو ربّ العالمين، ورب كل شيء. ولهذا جاء وصفه في القرآن المجيد بأنه ﴿رب العالمين – ورب كل شيء – ورب السماوات والأرض – ورب السماوات السبع ورب العرش العظيم﴾. فالربوبية هي الوصف الجامع لكل صفات الله ذات العلاقة والأثر في مخلوقاته [٥٣].

ج. **المقصود بتوحيد الربوبية:** هو اعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى هو وحده ربٌّ كل شيء ومالكه، وهو خالق كل شيء، هو خالق العباد، ورازقهم، وهو محييهم ومميتهم، وأنه سبحانه النافع والضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، والمتصرف بالأمر كله، وبيده الخير كله، وهو على كل شيء قدير، ليس له في ذلك شريك[٥٤]، فتوحيد الربوبية هو توحيده سبحانه وتعالى بأفعاله من الخلق والرزق والتدبير، والتسيير، والإحياء، والإماتة وغيرها، وبعبارة أخرى فأن من مفهوم المخالفة لهذا التوحيد نفي الشرك مع الله سبحانه وتعالى في صفات الربوبية الحقة، والإقرار بأنه تعالى وحده هو الفاعل المطلق في الكون، لا يشاركه أحد في فعله سبحانه[٥٥].

والإقرار بهذا النوع من التوحيد متأصل في الفطرة لا يكاد ينازع فيه أحد من الأمم، يقول عبد الله نومسوك: "وإن كل واحد من بني آدم يقرّ بوجود الخالق، وأما ما يظهر على بعض الملحدين من الكفر بالله سبحانه وتعالى فهو أمر طارئ على الفطرة،

---

[٥٣] انظر: عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة، دمشق: دار القلم، ص١٦٦.

[٥٤] ضميرية، مرجع سابق، ، ص٢٢٦.

[٥٥] عبد الله نومسوك، ١٤١٤هـ/١٩٩٤، منهج الإمام الشوكاني في العقيدة، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٥٠/١.

وانحراف عن الطبيعة البشرية الإنسانية"[٥٦]، وقد أخبر الله تعالى إقرار المشركين بتوحيد الربوبية في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾[٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٥٨]. وقال تعالى أيضا: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾[٥٩].

وفي الآيات السابقة أن الناس- وخصوصا مشركي العرب- أقرّوا بوجود الرب الخالق سبحانه وتعالى، ونسبوا الخلق والإحياء والإماتة، وتدبير الأمر كله من رزق وإنزال للمطر وغيره لله سبحانه وتعالى، وما كانوا يعتقدون بمشاركة الأصنام في خلق العالم وتدبيره إلا في حالة فساد الفطرة وتغيرها، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:"الإقرار بالخالق وكماله يكون فطريا ضروريا في حق من سلمت فطرته، وإن كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة، وقد يحتاج إلى الأدلة عليه كثير من الناس عند تغير الفطرة وأحوال تعرض لها"[٦٠].

---

[٥٦] بومسوك، مرجع سابق، ١/١٥١.

[٥٧] سورة الزخرف: الآية ٨٧.

[٥٨] سورة العنكبوت : الآية ٦٣.

[٥٩] سورة يونس : الآية ٣١.

[٦٠] ابن تيمية، ١٣٨١هـ، مجموع فتاوى، ٦/٧٣.

ثانيًا: أبرز مظاهر توحيد الربوبية من خلال القصة

١- إقرار الفتية المؤمنين بربوبية الله:

وتظهر مظاهر توحيد الربوبية في قصة الفتية المؤمنين في قوله تعالى على لسانهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٦١]، وأن صفة ربوبية (الرب) جل وعلا تدل عليها أسماء الله الحسنى ذوات التعلّق بشيء من الكون ضمن مفهوم من مفاهيم التربية، كالأسماء التالية: الخالق، الرازق، المالك، المهيمن، المصور وغيره[٦٢]، وبهذا يظهر لنا أن الربوبية التي تدل عليها لفظة (الرب) إحدى أسماء الله الكلية العامة، التي تنضوي تحتها أسماء حسنى كثيرة، هي الصفة التي تجعل من يتعلّق به عبدا، فالإنس والجن والملائكة وكل كائن حيٍّ عباد الله، مملوكون له، مُحاطون إحاطةً شاملة بربوبيته جل وعلا[٦٣]، فالله الذي خلق السموات والأرض هو وحده مالكه، لا ربّ سواه سبحانه وتعالى.

٢- ربوبية الله في السنن الإلهية:

من أبرز صفات الله عز وجل الدالة على ربوبيته صفة التدبير، وقد سنّ لمخلوقات قوانين وسُننا ثابتة، وهذه السنن لا يمكن إضافتها لغير الله سبحانه وتعالى، لأنه هو المتفرّد بالربوبية وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[٦٤]، أي لن تجد لها تحويلا وتغييرا، بل هي ثابتة دائمة، فالسنن الإلهية في ربوبية الله عز وجل التي وردت في قصة الفتية المؤمنين هي:

---

[٦١] سورة الكهف: الآية ١٤.

[٦٢] عبد الرحمن الميداني، مرجع سابق، ص١٦٦.

[٦٣] الميداني، مرجع سابق، ص١٦٨.

[٦٤] سورة الأحزاب: الآية ٦٢.

(أ) سنة الله في الفتنة والابتلاء

ذكر أبو فارس أن الابتلاء سنة من سنن الله عز وجل لا بد أن تقع وأن تتحقق، وهو أمارة على حب الله للمبتلى، فإن الله تعالى إذا أحبّ عبدا ابتلاه، ويبتلى الرجل على قدر دينه، فإن وجد في دينه صلابة زِيْدَ له في البلاء[٦٥]، ومن سنن الله تعالى امتحان واختبار الناس بالشر والخير، بغية تمحيص مدى الصبر والشكر لديهم، لينالوا الجزاء من الله على قدر ما يحصّلونه في هذه المِحَن والمِنَح من القيام بحق الطاعة والخضوع والامتثال لأمر الله فيهما، ولقد أخبرنا الله تبارك وتعالى بهذا الابتلاء، وأنه شيء ضروري لكل من يرجو رحمته، ويخشى عذابه، ويلتمس النجاة في الدنيا والآخرة، كما ابتلى الله عز وجل الفتية المؤمنين.

وأعظم مجالات الابتلاء التي واجهوها موقفهم في التضحية بنفوسهم في سبيل عقيدتهم، وصبرهم على اضطهاد قومهم الذين حاولوا إعادتهم إلى الكفر والشرك، واضطرارهم على هجران الديار والأوطان، ومفارقة ما كانوا فيه من طيب العيش، وترك الأهل والنعيم والإخوان، وفروا بدينهم إلى الكهف[٦٦]، وابتلاهم الله سبحانه وتعالى باضطهاد قومهم بسبب اختلافهم لعقيدتهم، فهذا الابتلاء للكشف عن إيمان المبتلى، وهو يشمل الكشف عن عقل المبتلى وعلمه، وأخلاقه ونوازعه النفسية، لأن الإيمان مبني على العقل والعلم والأخلاق، فبهذه الفتنة والابتلاء أظهروا إيمانا راسخا في الله رب السموات والأرض وصبرا عظيما، وهذا الامتحان على عباده المؤمنين من اختصاصه سبحانه وتعالى، فعلى هذه السنة الإلهية امتحن الله تعالى الفتية المؤمنين، وكانوا ناجحين في هذا الابتلاء بلجوئهم إلى الله عز وجل، ويجمل هذا الأمر عبد الكريم زيدان بقوله:

"إن الله تعالى يبتلي عباده المؤمنين على وجه الاختبار والامتحان، ليتبيّن مخبوء نفوسهم، ومدى طاعتهم في الشدائد، ومدى استمساكهم بمعاني

---

٦٥ أبو فارس محمد عبد القادر، (د.ت)، الابتلاء والمحن وأثره في الدعوات، ص١٦٩.

٦٦ أبو محمد الحسين البغوي، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، تفسير البغوي المسمى (معالم التتريل)، الرياض: دار طيبة، ١٥٣/٣. وشهاب الدين الآلوسي، روح المعاني، بيروت: دار الفكر، المجلد الخامس، ١٥/ ٢١٨.

الإسلام في أوقات الشدائد والصعاب، ... وأن امتحان الله عباده المؤمنين من اختصاص وتفرّد ربّ العالمين، فهو الذي يقرّر امتحان المؤمن في الوقت الذي يريده، وبالكيفية التي يريدها، ولا اعتراض ولا تعقيب على حكم أحكم الحاكمين"[٦٧].

(ب) سنة الله في التدافع بين الحق والباطل

يُقصد بالحق كل ما أمر الله به، والباطل كل ما نهى الله عنه، والتدافع هو: تنحية كل من الحق والباطل للآخر، أو إزالته ومحوه بالقوة عند الاقتضاء، وهذا التدافع ممثل في المؤمنين وغيرهم، فكل يدفع الآخر بكل ما أوتي من قوة، ولكن سنة الله عز وجل اقتضت في تدافع الحق والباطل أن الغلبة للحق وأهله، والاندحار للباطل وأهله، "وهذه قاعدة عامة مبينة لسنة الله في تنازع الحق والباطل، والصلاح والفساد"[٦٨].

وتمثل قصة الفتية المؤمنين مع قومهم جانبا من الحياة البشرية، ومشهدا يتكرر عند وجود العقيدة الصحيحة في مجتمع ما، مهما كان وضع هذه العقيدة قوة أو ضعفا، ففي حال قوتها يكون السواد الأعظم من الناس يتحلون بها، وأما في حال ضعف أصحاب العقيدة الصحيحة وقلتهم فإن هذا النموذج يُبرز، يتعرضون لاضطهاد ونفي وتشريد، باعتبار أن العقيدة الصحيحة أكثر خطرا، وأعظم ضررا على كيان مجتمع مشرك، ومقاصد أهله من الدعوات الجاهلية، والأفكار الهدامة، فتبدأ قصة الفتية المؤمنين بالصراع بين القلة المؤمنة الضعيفة والكثرة الكافرة القوية، وتبين لنا أنهم قد ثبتوا على إيمانهم بالله رب العالمين، وانطلقتْ عقولهم تدافع عن الحق، فعرفتْ أن الشرك بالله سبحانه وتعالى شَطَطٌ (أي انحراف عقلي)، وأن المشرك لا يستطيع أن يأتي بسلطان (أي ببرهان عقلي أو عملي على شركه)، فقدّم الفتية المؤمنون كل ما لديهم من حجة، والمؤمن بقيامه

---

[٦٧] عبد الكريم زيدان (٢)، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١/٢٢٦.

[٦٨] محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١١/٤٦٨ (بتصرف).

هذا في وجه الطغيان يلتزم العقل والحكمة، فيدعو الناس إلى التدبر والتفكر فيما حولهم من الكائنات، ليتعرفوا على الخالق المعبود بحق، ويدعو الخصوم إلى مقارعة الحجة بالحجة، وإلى التحاكم إلى البرهان، وإلى العقل والمنطق[٦٩]، فقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ۝﴾[٧٠].

(ج) سنة الله في نصرة المؤمنين:

وإن سنة الله في نصرة العقيدة الصحيحة تكمن في كون منطلقات حامليها سليمة، وأن يكونوا فئة متميزة تضحي في سبيلها بغض النظر عن العدد والعدة، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝﴾[٧١]، ذكر ابن كثير أن هذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا[٧٢]، إذ النصر ليس مقصورا على الغلبة الظاهرة، إذ النصر في حقيقته نصرٌ للعقيدة في إعلائها وصمود أهلها، ولو استبسلت النفوس في ذلك وزهقت.[٧٣].

وجاءت قصة الفتية المؤمنين مبينة حالات النصر الظاهرة والخفية التي تحققت لهؤلاء الفتية، لقد حققوا مقومات تنزّل النصر عليهم، بسبب إيمانهم الراسخ بالله رب العالمين، ووصفهم الله عز وجل بقولهم ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾[٧٤]، وصفة الإيمان والفتوة هما الصفتان الأساسيتان في دستور النصرة الإلهية والتأييد الرباني، يقول الندوي:

---

[٦٩] مصطفى مسلم، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، مباحث في التفسير الموضوعي، دمشق: دار القلم، ص٢٠٥. والندوي، مرجع سابق، ص٤٩.

[٧٠] سورة الكهف: الآية ١٥.

[٧١] سورة غافر: الآية ٥١.

[٧٢] ابن كثير، المرجع السابق، ٤/٧٦.

[٧٣] سيد قطب (٢)، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، معالم في الطريق، بيروت: دار الشروق، ص١٩١.

[٧٤] سورة الكهف: الآية ١٣.

"لقد كان لهم أن يهيموا في أرض الله على وجوههم، ويمضي كل أحد منهم لسبيله، أو يأوى كل فرد منهم إلى مغارة أرض، أو تلة جبل، كما فعل المسيحيون في عصر رهبتهم وانحطاطهم، ولكن الله ألهمَهم أن يخرجوا مجتمعين، فارين بدينهم وعقيدهم، لاجئين إلى الله، منتظرين منه الفرج القريب، والنصر المبين"[٧٥].

نصر الله الفتية المؤمنين باجتماعهم وإيوائهم في الكهف، وصبرهم على المصائب والشدائد، وأنه لا يأتي النصر إلا بعد أن تبلغ الشدة بالمؤمنين منتهاها، وفي ذلك يظهر نصر الله عز وجل عليهم واضحا حين اعتزلوا قومهم وما يعبدون إلا الله فأوَوا إلى الكهف ينشر لهم ربهم من رحمته، ويسترهم بها من قومهم، ويهيئ لهم من أمرهم الذي هم فيه مرْفَقا أي أمرا يرتفقون به، ففقدَهم قومهم من بين أظهرهم، و لم يظفروا بهم وعمى الله عليهم خبرهم[٧٦]، كما فعل سبحانه وتعالى بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق حين لجآ إلى غار ثور وجاء المشركون من قريش في الطلب فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه وعندها قال النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى جزْع الصديق في قوله: يا رسول الله لو أنّ أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا فقال صلى الله عليه وسلم: ((يا أبا بكْرٍ ما ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللهُ ثالِثُهما))[٧٧]. وقد قال تعالى في هذه الحادثة في كتابه الحكيم: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[٧٨].

---

[٧٥] الندوي، مرجع سابق، ص٥٥-٥٦.

[٧٦] ابن كثير، مصدر سابق، ٣/٧٦. (بتصرف).

[٧٧] صحيح البخاري رقم (٤٦٦٣)، وصحيح مسلم رقم (٢٣٨١)

[٧٨] سورة التوبة: الآية ٤٠.

(د) سنة الله في الأسباب والمسبّبات

ذهب عبد الكريم زيدان إلى أنها تعني: ربط المسببات بأسبابها والنتائج بمقدماتها[٧٩]، ويضيف أن وراء هذه الأسباب الطبيعية والقوى الكونية قوة غيبية تملك زمام هذه الأسباب، والله عز وجل هو خالق هذه الأسباب ومسبباتها، وإن خالق هذا الكون خالق هذه الأسباب، فهو تعالى الذي جعل هذه النسبة بين السبب والمسبب عنه، فالمرء يأخذ بالأسباب من باب تقدير الله لها، فيسعى في تحصيلها ويراعي شروطها بغية تحقيق مراد مسببها، كما قدّره الله بعلمه وحكمته التي اقتضت ذلك، ولكنه لا يتعلق بها لأنها إنما جُعلت كذلك بإرادة الله ومشيئته[٨٠].

وقد عدّ بعض العلماء أهمية سنة الله في الأسباب قاعدة لسنن الله الأخرى، إذ لا تخلو سنة من سبب ومسبب سواء كان ظاهرا بصورة مباشرة أو غير مباشرة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات"[٨١]، أي أن الله وحده خالق السبب وخالق النتيجة، وعليه فإن الأسباب مهما عظمت فإنها مرتبطة بمشيئة الله تعالى وقدرته، لذا فإن الله سبحانه وتعالى وإن كان قد أمر بالأخذ بالأسباب، إلا أنه احتفظ لنفسه بطلاقة القدرة، فالأمر كله بمشيئته سبحانه وتعالى[٨٢].

وذكر ابن قيم الجوزية أن القرآن مليء بترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة، فيأتي بـــ(باء) السببية تارة كقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾[٨٣]، ويأتي بـــ(اللام) تارة كقوله:

[٧٩] عبد الكريم زيدان، د.ت، السنن الإلهية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ص٢٢.

[٨٠] عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، ص ٣٣. وانظر: الندوي، مرجع سابق، ص٢٣.

[٨١] ابن تيمية، مجموع فتاوى، ٧/ ٧٠.

[٨٢] مروان إبراهيم القيسي، ١٤١٠هـــ/١٩٩٠م، معالم التوحيد، بيروت: المكتب الإسلامي، ص٣٣.

[٨٣] سورة الحاقة : الآية ٢٤.

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[٨٤]، ويأتي بذكر الوصف المقتضى للحكم تارة كقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝﴾[٨٥]، فالله اقتضت حكمته ربط المسببات بأسبابها[٨٦].

ويجعل الله عز وجل أمور الدنيا تجري على سنته في ربط الأسباب بالمسببات، وهذه هي سنته في الكون التي وضعهاللأحداث ليعرفها الخلق ويراعوها، لا لتقييد إرادة الله تعالى، فربط عز وجل في قصة الفتية المؤمنين أسباب نجاتهم بإيوائهم في الكهف، وربط إظهار قدرته على البعث بإنامتهم ثم إيقاظهم بعد نومهم الطويل وغيره مما سنجده في قصتهم- سيتحدث عنها الباحث في مقامها بالتفصيل- ومن الإشارة إلى قيامهم بالأسباب، والجري وراء سنة الله في الكون من الجد والعمل، وأن على قدر بذل الجهد يكون الفوز والنجاة.

٣-٣ توحيد الألوهية

أولاً: توحيد الألوهية لغة واصطلاحا

الألوهية لغة: مأخوذة من لفظة (إله)، والإله: "الله عز وجل، وكل ما اتُّخذ من دونه معبودا إله عند مُتَّخذه، والجمع آلهة، والإلاهة والألوهة والألوهية العبادة"[٨٧]. وتوحيد الألوهية اصطلاحا: "إفراد الله-سبحانه وتعالى- بالعبادة"[٨٨]، بمعنى: "أن يُعبَد الله سبحانه وتعالى وحده، ولا يُشرَك معه في عبادته أحد من خلْقه، لأنه وحده

---

[٨٤] سورة إبراهيم: الآية ١.

[٨٥] سورة الطلاق: الآية ٢.

[٨٦] ابن قيم الجوزية، د.ت، مدارج السالكين، د.ط/ن، ٣/٤٧٨، ٤٩٨، ٤٩٩.

[٨٧] ابن منظور، مصدر سابق، مادة (إله)، ١/١١٤-١١٥.

[٨٨] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٣/١٠١.

المستحق لأن يُعبد، وهو مبنيٌّ على إخلاص العمل كله والتوجّه به لله سبحانه وتعالى وحده دون سواه، سواء كان هذا العمل من أعمال القلوب أو من أعمال الجوارح"[٨٩].

وتوحيد الألوهية في حقيقته هو توحيد العبادة، وهي: "اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة"[٩٠]، ويفهم من هذا التعريف للعبادة أن الله الخالق قد أفرد بسائر العبادات الظاهرة والباطنة قولا وعملا واختصاصه به دون غيره، ونفى عز وجل العبادة عن كل ما سواه كائنا من كان، وعدم الإشراك به سبحانه وتعالى في أي شيء من صورها، ودون أن يُتوجّه بشيء منها إلى غيره، وهذا النوع من التوحيد يتضمن في حقيقته جميع أنواع التوحيد الأخرى، فيتضمن توحيد الله في ربوبيته، وتوحيده في أسمائه وصفاته، وليس العكس، فإن توحيد الإنسان لله عز وجل في ربوبيته لا يعني أنه يوحده في ألوهيته، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[٩١]. وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٩٢]. وقال تعالى أيضا: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾[٩٣]. وأن الآيات لم تأت لتقرير هذا النوع من التوحيد استقلالاً عن توحيد الألوهية الذي يعتبر الأساس في استدلالات القرآن العقلية، وإنما جاءت أدلة القرآن الكريم مقررة لتوحيد الألوهية المتضمن توحيد الربوبية، ومعنى كونه متضمناً له أن توحيد الربوبية داخلٌ في توحيد الألوهية، فإن توحيد الألوهية يستلزم توحيد الربوبية، ولكن الأمر لا ينعكس، بدليل أن أكثر الناس يعترفون بربوبية الله للخلق،

---

[٨٩] ضميرية، مرجع سابق، ص٢٣٣.

[٩٠] ابن تيمية، مصدر سابق، ١٠/١٤٩. وابن تيمية، ١٣٩٩هـ، العبودية، عمان: المكتب الإسلامي، ص٣٨.

[٩١] سورة الزخرف: الآية ٨٧ .

[٩٢] سورة العنكبوت : الآية ٦٣.

[٩٣] سورة يونس : الآية ٣١.

ولكنهم يُوجِّهون العبادة لغيره سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[٩٤]، وهم مع هذا يعبدون غيره سبحانه وتعالى، وهذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن من عبَدَ الله وحده ولم يشرك به شيئا لا بد أن يكون قد اعتقد أنه هو ربه ومالكه الذي لا ربَّ له غيره، ولا مالك له سواه، لذا فقد بعث الله الرسل ليعبد الناس الله تعالى في كل شأن من شؤون حياتهم، وما من رسول أرسله الله إلى العباد إلا وكان هذا النوع من التوحيد أساس دعوته وجوهرها[٩٥]، قال الله تعالى عن هذا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾[٩٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝﴾[٩٧].

ذكر عثمان جمعة ضميرية أنه إن كان الجهلة - في كل عصر من عصورهم- يشهدون لله تعالى بالهيمنة على شؤون العالم في الخلق والملك وفي الرزق وغيره، ولئن اعترفوا بذلك كله، إلا أن الدعوة ينبغي أن تُوجّه إليهم لإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، ليتحقق عندئذ التوحيد بأسمى معانيه، وعندئذ تكون البشرية على الدين الحق[٩٨]، ولذلك لم يَدعُها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الاعتقاد بوجود الله، ولكن دعاها إلى توحيده سبحانه وتعالى، دعاها إلى الاعتقاد بأن الله وحده هو الإله والرب، دعاها إلى عبادته وحده، ودعاها إلى التحاكم إلى شريعته سبحانه وتعالى والدينونة له بالعبودية،

---

[٩٤] سورة الزخرف : الآية ٨٧.

[٩٥] عبد الكريم عبيدات، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، عَمان: دار النفائس، ص٢٦٤. وانظر أيضا: القيسي، مرجع سابق، ص٢٢. ومحمد نعيم ياسين، مرجع سابق، ص١٤. وعبد الله نومسوك، مرجع سابق، ١/٢٧٢.

[٩٦] سورة النحل: الآية ٣٦.

[٩٧] سورة الأنبياء : الآية ٢٥.

[٩٨] عثمان ضميرية، مرجع سابق، ص٢٥٢-٢٥٣.

وكانت هذه الدعوة بمضامينها هذه كاملة، هي معنى شهادة أن لا إله إلا الله، التي هي الإسلام[٩٩].

ولما كان هذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام، فقد كانت الشهادتان أول ركن من أركان الإسلام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((بُنِيَ الإسلامُ عَلَى خَمْسٍ؛ شَهادَةِ أنْ لآ إلهَ إلاّ اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَّسُولُ اللهِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وصَوْمِ رَمَضانِ، وحَجِّ البَيْتِ))[١٠٠]. وتوحيد الله في ألوهيته يستلزم أن نتوجه إليه وحده بجميع أنواع العبادة وأشكالها، لذا يحاول الباحث بيان تفصيلات هذا التوحيد عن طريق بيان النوعين من العبادات، هما؛ العبادات التي مناطها القلب، والعبادات التي مناطها الجوارح.

(١) العبادات التي مناطها القلب:

أ- الإخلاص:

الإخلاص لغة: من معانيه النجاة والسلامة والتميّز والصفاء والنصاعة[١٠١]. واصطلاحا: "إفراد الحق سبحانه بالقصْد[١٠٢] في الطاعة، أو هو استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن"[١٠٣]. وأهميته: يتعلق الإخلاص لله بالوِجهة والقصد، وهو من أهم الأعمال القلبية، خاصة وأنه يتعلق بقبول العمل، فهو أحد شرطي قبول العمل عند الله، كما قال الله سبحانه وتعالى:﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ

---

[٩٩] سيد قطب (٣)، د.ت، مقومات التصور الإسلامي، بيروت: دار الشروق، ص١٠٧. (بتصرف)

[١٠٠] رواه البخاري رقم (٨)، ومسلم. رقم (١٦).

[١٠١] ابن منظور، مصدر سابق، ١٢٢٧/٢-١٢٢٨.

[١٠٢] (القصد) في اللغة: الاعتزام، والتوجّه، والنهوض نحو الشيء. انظر: ابن منظور، نفس المصدر، ٣٦٤٣/٥.

[١٠٣] عبد المنعم العزي، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، تهذيب مدارج السالكين لابن القيم الجوزية، ٥١٥/١.

﴿أَحَدًا﴾[١٠٤]، وقيل: "العمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير تحقيق هباء"[١٠٥]. قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[١٠٦].

أما أبرز مظاهر الإخلاص في قصة الفتية المؤمنين فيظهر في توحيدهم وإخلاصهم العبادة لله عز وجل وتوجّههم بقلوبهم له وحده، وعدم اتّخاذهم معه سبحانه وتعالى ندا في العبادة والمحبة، قال تعالى على لسانهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١٠٧]، فاعتزالهم عن عبادة قومهم يترتب عن إقرارهم بربوبية الله عز وجلّ وإخلاصهم له.

ب- اليقين والثقة بالله عز وجل:

اليقين لغة: العلم وإزاحة الشكّ وتحقيق الأمر[١٠٨]. واصطلاحا: هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحوّل، ولا يتغير في القلب[١٠٩].

والثقة لغة: الائتمان والسكون والاعتماد[١١٠]. واصطلاحا: أمن العبد من فوتِ المقدور وانتقاض المسطور، فيظفر برَوح الرضا، وإلا فبعينِ اليقين، وإلا بلطف الصبر"[١١١].

أما أبرز مظاهر اليقين بالله عز وجل في قصة الفتية المؤمنين فهي ثقتهم بالله عز وجل، ويتّضح ذلك في قوله تعالى على لسانهم: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ

---

[١٠٤] سورة الكهف: الآية ١١٠.

[١٠٥] ابن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، ص٣٦٠.

[١٠٦] سورة الفرقان: الآية ٢٣.

[١٠٧] سورة الكهف: الآية ١٤.

[١٠٨] ابن منظور، مصدر سابق، مادة (يقن)، ٤٩٦٤/٦.

[١٠٩] عبد المنعم العزي، مرجع سابق، ٧٢٨/٢.

[١١٠] ابن منظور، مصدر سابق، مادة (وثق)، ٤٧٦٤/٦.

[١١١] عبد المنعم العزي، نفس المرجع، ٥٥٢/٢. (وذكر في هامش الصفحة نفسها أن: رَوح الرضا: أي راحته ولذّته ونعيمه، وعين اليقين: قوة الإيمان ومباشرته للقلب).

لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[١١٢]، بعد أن قال أحدهم: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾، وهذا يدل على يقينهم باستجابة الله لهم بعد أن دعَوه سبحانه وتعالى لينشر لهم رحمة منه، وليهيئ لهم من أمرهم رشدا، بدعائهم إياه: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾[١١٣]، فاتّفق الفتية المؤمنون على اللجوء إلى الكهف وإقتناعهم بأن في أرض الله سعة، يدل على أنهم يثقون بنصرة الله عز وجل لهم بعد إيمانهم به سبحانه وتعالى، يذكر سعيد حوى أن في قول الله تعالى:﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[١١٤]، قالوا ذلك ثقة بفضل الله، وقوة في رجائهم لتوكّلهم عليه، ونصوع يقينهم، وقد دلّ هذا على أن الله أكرمهم لصدقهم بكمال معرفته، فأصبحوا عارفين به حالا ومقالا وسلوكا، ومن كمال معرفتهم أنهم عرفوا أن اعتزال قومهم بالكهف سيقابله عطاء من الله لهم[١١٥]. والدافع إلى ذلك إنما هو الإيمان الذي ملأ قلوبهم جعلهم يثقون بأن الله عز وجل سيجعل لهم مخرجا.

ج- التوكل

التوكل لغة: من معانيه الاعتماد والاستكفاء والاستسلام والحفظ، وإظهار العجز والاعتماد على الغير[١١٦]. واصطلاحا: هو "صدق الاعتماد على الله عز وجل في جلب المنافع ودفع المضار مع فعل الأسباب التي أمر الله بها" [١١٧].

إن التوكل على الله عز وجل من لوازم الإيمان ومقتضياته، فإيمان الفتية المؤمنين يقتضي توكّلهم لله رب العالمين، وتفويضهم له تعالى، وتطبيق التوكل يُعدّ وظيفةً

---

[١١٢] سورة الكهف: الآية ١٦.

[١١٣] سورة الكهف: الآية ١٠.

[١١٤] سورة الكهف: الآية ١٠.

[١١٥] سعيد حوى، مرجع سابق، ٣١٦٧/٦.

[١١٦] ابن منظور، مصدر سابق، مادة (وكل)، ٤٩٠٩/٦-٤٩١٠.

[١١٧] محمد بن صالح العثيمين (٢)، د.ت، مجموع فتاوى ورسائل، الرياض: دار طيبة، ١٠٦/١.

من وظائف الطمأنينة الإيمانية القلبية، وعنصرا من عناصر الجانب الاعتقادي القلبي، ومن مظاهر تفويض أمرهم لتدبير الله عز وجل، على حسب درجات التوكل هي[١١٨]:

١) معرفتهم الربَّ وصفاته من قدرته، وكفايته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته.

٢) ثباتهم في تنفيذ الأسباب والمسببات، فالأسباب محلّ حكمة الله وأمره ودينه، والتوكّل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره، فالتوكّل يُعدّ أقوى الأسباب في حصول المراد ودفع المكروه، والذي يحقق التوكّل القيام بالأسباب المأمور بها، فمن عطلّها لم يصح توكلّه، كما أن القيام بالأسباب المؤدية إلى حصول الخير يحقق رجاءه، فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنّيا.

٣) رسوخ قلوبهم في مقام توحيد التوكّل، فحقيقة التوكل توحيد القلب، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، وذلك بألا يلتفت إلى غير الله في توكلّه.

٤) اعتماد قلوبهم على الله عز وجل، واستنادهم إليه، وعلامته عدم التعلّق بالأسباب، ولا تتعلّق النتائج بها، وذلك بأن يكون "اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلوّ القلب من الاعتماد عليها والركون إليها". و استسلام القلب لله، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وذلك بالاستسلام لتدبير الربّ فيما يفعله به، لا فيما يأمره به، وذلك حين يتساءلون بينهم عن مدة النوم، فيختلفون في التقدير والتحديد، ثمّ يبادرون بتوكّل أمره إلى علم الله عز وجل، لأنه ليس من مهمات الدين والدنيا، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾[١١٩].

---

[١١٨] ابن القيم (٤)، د.ت، الفوائد، د.ط/ن، ص١٣٠.

[١١٩] سورة الكهف: الآية ١٩.

٥) حسن ظنهم بالله، فعلى قدر حسن الظن بالله ورجائه يكون التوكّل.

٦) تفويضهم أمرهم لله وحده، وهو روح التوكل ولبّه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلبا واختيارا، لا كرها واضطرارا، والمفوّض لا يفوض أمره إلى الله إلا لإرادته أن يقضيَ له ما هو خير له في معاشه ومعاده، وإن كان المقضيّ له خلاف ما يظنه خيرا فهو راضٍ به، لأنه يعلم أنه خير له، والمتوكل مفوّض وزيادة، لأن معه من عمل القلب ما ليس مع المفوّض، فإنه إذا فوّض أمره إليه اعتمد بقلبه كله عليه بعد تفويضه.

٧) رضاهم بالله تعالى، فالرضا ثمرة التوكل، فإنه إذا توكل حق التوكّل رضيَ بما يفعله وكيله، وملأها شجاعة وسكينة، وقوة ويقينا، فرضوا بالله وأفعاله.

د- الرجاء

الرجاء لغة: نقيض اليأس، وهو بمعنى التوقّع والأمل[١٢٠]. وهو " ظنّ يقتضي حصول ما فيه مَسَرَّة"[١٢١]. واصطلاحا: الاستبشار والثقة بجود الله عز وجل وفضله، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه وتعالى[١٢٢].

إن المتأمل في قصة الفتية المؤمنين يرى أهم لا ينفكون عن مقام الرجاء لله في السراء والضراء، فهو من باب حسن الظن بالله، فالناس في السراء يرجو الله عز وجل، بغيةَ حمده وشكره وإرادة دوام نعمته وفضله، وفي الضراء بغية سؤال رحمته وكشف ضرّه،

---

[١٢٠] ابن منظور، مصدر سابق، مادة (رجا) ، ٣/١٦٠٤.

[١٢١] الراغب الأصفهاني، المفردات، ص١٩٠.

[١٢٢] عبد المنعم العزي، مرجع سابق، ١/٤٧٦.

قال تعالى على لسانهم :﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾[١٢٣]، فهذه الآية دليل واضح على استمرار رجائهم لله سبحانه وتعالى وثقتهم به.

هـ - الصبر

الصبر لغة: من معانيه النجاة والسلامة والتميّز والصفاء والنصاعة[١٢٤].
واصطلاحا: من أظهر معاني الصبر: حبسُ النفس على المكروه[١٢٥]. ويُعدّ الصبر من مقامات التوحيد الرئيسة، ذلك أن العباد مُعرَّضون على الدوام للمصائب، لذا كانت حاجتهم إلى الصبر دائمة ومتكررة، ولا شك أن العبادات كلها تقوم على الصبر، وهو يشكل أهم أسباب الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

ومما يُفهم من الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ ﴾[١٢٦]، أنهم اتصفوا بالصبر، وصبروا على الشدائد والمصائب. يقول معظم المفسرين[١٢٧] إن قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ ﴾، معناها: وصبرناهم بنور الإيمان وشددنا على قلوبهم بالصبر والتثبيت حتى صبروا على مخالفة قومهم ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، وقويناها بالصبر فلم تزحزحها عواصف فراق هجران الوطن والأهل والمال، ولم يزعجها الخوف من ملكهم الجبار، ولم يرعها كثرة الكفار، ولم تغيب عنهم الجرأة على إظهار كلمة الحق والتظاهر بالإسلام، وهي عبارة على شدة عزم

---

[١٢٣] سورة الكهف: الآية ١٠.

[١٢٤] ابن منظور، مصدر سابق، ٢/١٢٢٧-١٢٢٨.

[١٢٥] عبد المنعم العزي، مرجع سابق، ٢/٥٦٦.

[١٢٦] سورة الكهف: الآية ١٤.

[١٢٧] ابن كثير، مصدر سابق، ٣/٧٥، ومحمد بن أحمد القرطبي، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، الجامع لأحكام القرآن، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٠/٣٦٥. والبيضاوي، تفسير البيضاوي، ٣/٤٨٢. والبغوي، مصدر سابق، ٣/١٥٣، والآلوسي، مصدر سابق، ١٥/٢١٨.

وقوة صبر أعطاها الله لهم حتى قالوا بين يدي الكفار ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾[١٢٨].

وتدل الآية السابقة أيضا على أن الفتنة التي تعرض لها الفتية المؤمنين كانت كبيرة وشديدة، فالربط على القلب لا يكون إلا عند الأحداث الكبيرة المخيفة التي تزلزل القلوب، وتتزعزع فيها النفوس، كحال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مواجهتهم لجيش الكفار في معركة بدر[١٢٩]، فقد كانوا أكثر عدداً وعدة من المسلمين، فثبت الله عز وجل المؤمنين وربط على قلوبهم، وأخبر عن ذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[١٣٠]، وكحال أم موسى عندما سمعت أن ولدها أصبح في يد فرعون، فخافت وكادت أن تظهر أمرها وأمره، لكنّ الله سبحانه وتعالى ثبّتها وربط على قلبها، قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١٣١].

(٢) العبادات التي مناطها الجوارح:

أ- الذكر وأهميته التعبدية والعلاقة بينه وبين العبادة:

المراد الحقيقي من الذكر هو حضور القلب، والذكر من سماته أنه متصل بالإنسان في كل أحيانه وأحواله، ومن ثمّ يكفل للمسلم دوام الصلة القلبية بالله عز وجل،

---

[١٢٨] سورة الكهف: الآية ١٤.

[١٢٩] كانت في صبيحة سبعة عشر يوماً من رمضان سنة ٢هـ، انظر: ابن هشام، مصدر سابق، ٦١٢/٢.

[١٣٠] سورة الأنفال : الآية ١١.

[١٣١] سورة القصص : الآية ١٠.

ويولّد الترابط بين المؤمن وما حوله من أشياء وأحداث، تكون سببا في تذكيره بالله عز وجل، وإزالة الغفلة عن قلبه، وقد وصفت السيدة عائشة رضي الله عنها دوام ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: ((كان النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه))[١٣٢].

ذكر عبد الرحمن الميداني أن الله عز وجل شرع لعباده ألوان العبادات القولية والعملية، لتكون مساعدة على ذكر الله عز وجل، فإذا حضر هذا الذكر في ساحة التصور المتحرك الفاعل على الوجه المطلوب، كان من شأنه أن يستثير في النفس مشاعر العبادة النفسية والقلبية، ذوات الآثار العملية في السلوك، إذ تجعل السلوكَ يلتزم بصراط الله المستقيم، بغيةَ الظفر برضوانه، الذي يحقق للعابد سعادة الدنيا، وسعادة الآخرة، ومما يتحقق للعبد من سعادة الدنيا حينما يبلغ الذكر إلى مرحلة الطمأنينة، وهي الارتخاء المستقر بعد السكون، وذلك أن من وصل بصدق إيمانه وحسن عمله إلى الشعور بأن الله عز وجل راضٍ عنه، يُفيض عليه فيض المعرفة بحكمته، ويُكرمه بحلاوة الإيمان في العسر واليسر، وفيما يحب من الدنيا من نِعَم، وفيما يكره من مصائب، فإنه كلما ذكر الله استرخى في موقعه من الإيمان مطمئنا، وهذا الاطمئنان يجعله راسخ القدم في مجاهدته لنفسه ولغيره في سبيل الله، بعزم وقوة وثبات وتوكل على الله، وصبر ومصابرة لمواجهة الشدائد التي تنتظر كل مسلم في طريقه[١٣٣]، ودلّ على هذه المرحلة قول الله عز وجل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[١٣٤].

ومن شأن الفتية المؤمنين الذين آمنوا وصدقوا واستقاموا، وذاقوا حلاوة الإيمان مدة طويلة، ووصلوا إلى الشعور بأن الله راضٍ عنهم، فهم يذكرون الله ذكرا كثيرا، وتطمئن قلوبهم بذكر الله، وكلما كثرت وتراكمت عليهم متاعب الحياة ومشكلاتها

---

[١٣٢] صحيح مسلم، حديث رقم ٥٥٨، من رواية عائشة رضي الله عنها.

[١٣٣] الميداني، مرجع سابق، ص٢٣١.

[١٣٤] سورة الرعد : الآية ٢٨.

وهمومها وشدائدها، فزعوا إلى ذكر الله، فاطمأنتْ قلوبهم به، فهذه أسمى مراحل تأثير ذكر الله في قلوب المؤمنين، إنها مرحلة الطمأنينة التي تُمدّ القلوب بالسعادة الدائمة المستقرة[١٣٥].

ب- الدعاء :

الدعاء لغةً: من معانيه؛ التوحيد، العبادة، الاستغاثة، النداء، القول، الثناء على الله، السؤال والطلب[١٣٦]. واصطلاحا: طلب العبد من ربه ما يحتاجه من أمور دينه ودنياه، إظهارا الافتقار إليه تعالى، والتبرؤ من الحول والقوة، واستشعارا الذلة البشرية[١٣٧].

وقد عدّ ابن القيم الدعاء نوعا من أنواع الذكر، في معرض بيانه لأنواع الذكر، من ثناء ودعاء ورعاية، ويقصد بالدعاء نحو: (يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث)، وبالرعاية قول الذاكر: الله معي، الله شاهدي، مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله، وربما إمكان إدخال هذه الأنواع ضمن مشتملات الذكر؛ إذ هي داخلة في أنواع الذكر حسب مناسبتها لما ورد فيها[١٣٨]. أما الدعاء الوارد في القصة فيكون كما يلي:

١) طلب الرحمة الخاصة:

تكون الرحمة رقة تقتضي الإحسان على المرحوم، والرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان، فركّز الله تعالى في طبائع الناس الرقة، وتفرّد بالإحسان[١٣٩].

---

[١٣٥] الميداني، مرجع سابق، ص٢٤٠.

[١٣٦] ابن منظور، مصدر سابق، مادة (دعا)، ٢/١٣٨٥-١٣٨٧. الراغب الأصفهاني، مصدر سابق، ص١٧٠.

[١٣٧] القيسي، مرجع سابق، ص٩٦.

[١٣٨] عبد المنعم العزي، مرجع سابق، ٢/٧٤٤.

[١٣٩] الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص١٩١.

لقد سأل الفتية المؤمنون ربهم الرحمة لهم، فدعوا الله بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ١٠﴾[١٤٠]، أي: أن يمنّ عليهم برحمة عظيمة تناسب عنايته باتباع الدين الذي أمر به، فهم مبتلون في حياتهم الدنيا في عقيدتهم، معرضون للفتَن والمكاره، فسألوا رحمة خاصة وافرة في حين توقّعوا أنهم سيصيبهم المصائب، وقصدوا الأمن على إيمانهم من الفتنة، ولئلاّ يلاقوا في اغترابهم مشقّة وألمًا، وألاّ يهينهم أعداء الدين فيصيروا فتنة للقوم الكافرين[١٤١]، وكلما قوى إيمانهم ويقينهم بالله عز وجل، قووا في مواجهة ذلك، ولكن تبقى هذه القوة في إطار بشريتهم، ومن ثَمّ تكون مشوبة بالضعف والعجز، لذا فهم في حاجة دائمة إلى من يسندهم ويعينهم في المواجهة والصمود، فلجأوا إلى الله عز وجل متضرعين مبتهلين، طالبي الثبات والصبر، فمَعينهم الذي لا ينضب هو الدعاء، وهو خير المعين وخير الزاد[١٤٢].

فها هم هؤلاء الفتية، بعد أن عرفوا الحق وتيقنوا أن الله واحد لا شريك له، وآمنوا بوحدانيته، فأصروا على إيمانهم، ودعوه بقولهم:﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾[١٤٣]. فسّر سعيد حوى هذا الدعاء قائلا: " أي: هب لنا خزائن رحمتك رحمة ترحمنا بها، وتسترنا عن قومنا"[١٤٤]. ففي قولهم (ربّنا) أنهم يتوسلون في هذا الدعاء بالرب الموصوف بكمال الربوبية لله عز وجل.

لقد نشر عليهم ربهم من رحمته، فملأت عليهم كهفهم، فعاشوا بها سعداء هادئين، فالكهف الضيق اتسع من حولهم، فأحسوا أنه واسع، فإن هذا من إحساس حقيقي، وليس وهما أو ظنا، إنهم يشعرون بأنس وراحة وانشراح، لأنهم يمارسون إسلامهم

---

[١٤٠] سورة الكهف: الآية ١٠.

[١٤١] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، تونس: سُحنون للنشر والتوزيع، ٢٦٦/٧.

[١٤٢] منى بنت عبد الله، مرجع سابق، ص ٨٤. (بتصرف)

[١٤٣] سورة الكهف: الآية ١٠.

[١٤٤] سعيد حوى، مرجع سابق، ٣١٦٥/٦.

ويعيشون حقائق إيمانهم، وإن التي جعلت كهفهم واسعا ميسّرا للحياة هي رحمة الله تعالى التي طلبوها، فاستجاب لهم ونشرها عليهم، يقول صلاح الخالدي:

"ما أقسى الحياة بدون رحمة، وما أضيق الدنيا بدون رحمة، إن الرحمة الربانية ما نُشرت على شيء إلا سهّلته وهيّأته وجعلته هانئا صالحا للحياة، وإن الرحمة الربانية الحانية ما شملت مؤمنا إلا جعلته هانئا سعيدا مسرورا، يعيش حياته بعزة وكرامة وسعادة وهناء"[١٤٥].

٢) سؤالهم الله تعالى التهيئة في أمرهم:

ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝﴾[١٤٦]، ومعنى "هيّئ لنا" أصلح شأننا، من قولك (هيّأت الأمر، فتهيّأ)، والتقدير: هيّئ لنا أمراً ذا رشد، والرشد: الخير وإصابة الحق والنفع، والصلاح، فسألوا الله عز وجل أن يقدّر لهم أحوالا تكون عاقبتها حصول ما خوّلهم من الثبات على الدين الحق والنجاة من مناواة المشركين، فعبّر عن ذلك التقدير بالتهيئة التي هي إعداد أسباب حصول الشيء[١٤٧].

ج- الأخذ بالأسباب:

إن إيمان المؤمن لا يُنافي تعاطي الأسباب كاملة ولا تناقض توكّله على الله تعالى، لأن النتائج والثمرات لا يصل إليها المؤمن إلا بإذن الله عز وجل، وقد ظهر أن الأسباب المشروعة من القدر، حين سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت رقيّ

---

[١٤٥] صلاح عبد الفتاح الخالدي (٢)، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، مع قصص السابقين في القرآن، دمشق: دار القلم، ٢/٦٤.

[١٤٦] سورة الكهف: الآية ١٠.

[١٤٧] ابن عاشور، مرجع سابق، ٢٦٦/٧.

نسترقي بها، وتقي نتقي بها، وأدْوِيةً نتداوى بها، هل تَرُدّ من قدرِ الله شيئا؟ فقال : هي من قدر الله))[١٤٨].

وأوضح شيخ الإسلام ابن تيمية المعنى الشرعي للأخذ بالأسباب بقوله: "الالتفات إلى الأسباب واعتبارها مؤثرة في المسببات شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدْحٌ في الشرع"[١٤٩]، فالقيام بالأسباب واعتبارها وإنزالها منازلها التي أنزل الله فيها هو محض التوحيد والعبودية، ذلك أن التوحيد يقتضي القيام بالأسباب الظاهرة[١٥٠]، وأبرز مظاهر الأخذ بالأسباب في قصة الفتية المؤمنين تتمثل في:

١) اعتزالهم قومهم بالإيواء إلى الكهف.

ثبت الفتية المؤمنون على دين الحق في وقت سيادة الكفر والباطل، وقرروا الاعتزال بعد دراسة للواقع الذي يعيشونه، فأوَوا إلى الكهف تحفُّظا من اعتداء قومهم عليهم، واستقروا فيه فرارا من الفتنة في دينهم، لقد نظروا في قوة قومهم الكافرين، ونظروا في موقفهم فإذا هم مصرّون على الكفر، لا يسمعون كلمة في الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله سبحانه وتعالى، بل سيلجأون إلى إيذائهم وتعذيبهم، وقد ضاقت الأرض على الفتية المؤمنين بما رحبت، يقول تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾، ولا سبيل إلى البقاء على العقيدة والتحفّظ من اعتداء

---

[١٤٨] أخرجه الترمذي في الطب حديث رقم (٢٠٦٥)، ابن ماجه، كتاب الطب، حديث رقم (٣٤٢٨)، واللفظ للترمذي.

[١٤٩] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٥٢٨/٨.

[١٥٠] عبد المنعم العزي، مرجع سابق، ص٥٧١. (بتصرف)

قومهم عليهم إلا بالاعتزال، فاعتزلوا إلى الكهف[١٥١]، كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾[١٥٢]، وانطلاقا من الإيمان اهتدوا إلى أن يخرجوا مجتمعين إلى الكهف ليعتزلوا المجتمع الجاهلي جسدياً بعد أن اعتزلوه روحياً، إذ العزلة الجسدية لها شروط، ولعلّ من أهمّها كما ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما معناه: أن لا يجد المرء على الحق أعوانا، وأن يرى شحّاً مطاعا، وهوىً متّبعا، وإعجاب كل ذي رأي رأيه، وأن لا تكون للمسلمين جماعة، فعندئذ جازت العزلة الجسدية[١٥٣]، وذكر سيد قطب في هذا الصدد أنهم ليسوا رسلا إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل، إنما هم فتية تبين لهم الهدى في وسط ظالم كافر، ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ويداوروهم، ويخفوا عبادتهم لله، والأرجح أن أمرهم قد كشف، فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة[١٥٤].

---

[١٥١] ذكر المجدوب الزمن الذي اعتزل فيه الفتية المؤمنون، وربط هذا الحدث باضطهاد اليهود للذين لم يعتنقوا اليهودية وذلك في عام ١١٥-١١٦ ميلادية، عندما قام اليهود بثورة قتلوا فيها غير اليهود ممن اعتنقوا المسيحية، ووجهوا انتقامهم بالذات إلى طائفة (الأسينيين) التي كانت قد انتقلت لتقيم في الضفة الشرقية لنهر الأردن، في المنطقة القريبة من (عمان) التي كانت تسمى (فيلادلفيا) وتمتد إلى عاصمة دولة البطيين القديمة (البطراء) أو (بيرا) كما كانت تسمى في اليونانية القديمة. وفي عام ١١٦ لجأ الفتية إلى الكهف في نهاية الثورة التي قام بها اليهود، فما لبث المسيحيون أن هاجموا اليهود وانتقموا منهم بأن قتلوا أعدادا غفيرة، فما كان من الفتية إلا أن تدارسوا في شأن الإجراء الذي يحفظ عليهم دينهم وعبادتهم لله الواحد الأحد الذي لم يلد و لم يولد، فانتهوا إلى أن لا مفر من الاعتزال، وهكذا مضوا إلى الكهف. انظر: أحمد المجدوب، مرجع سابق، ص ٢٥٢-٢٥٤.

[١٥٢] سورة الكهف: الآية ١٦.

[١٥٣] من معنى الحديث رواه الترمذي في كتاب التفسير، حديث رقم (٢٩٨٤)، ٣٢٣/٤، وقال عنه هذا حديث حسن غريب. وأبو داود، كتاب الملاحم، حديث رقم (٣٧٧٨).

[١٥٤] سيد قطب، مرجع سابق، ٢٢٦٢/٤.

وبهذا يرى الدارس أن الاعتزال والإيواء إلى الكهف كان قراراً صائباً، يتفق مع حالهم وواقعهم، ولذلك استجاب الله تعالى دعاءهم، وبسط من رحمته عليهم، وهيأ لهم في كهفهم مِرفقا ليحافظوا على إيمانهم ويعبدوا فيه ربهم.

٢) التزوّد بما يحتاجون إليه في السفر والهجرة:

استصحب الفتية المؤمنون معهم الدراهم قبل الخروج من مسكنهم، ليستعينوا بها ويتزودوا بها، واستطاعوا أن يستخدموها في حاجاتهم، وقد استفادوا منها فعلا إذ أرسلوا أحدهم ببعض ما عندهم منها، ليشتري لهم طعاما من المدينة بعد أن شعروا بالجوع، فأخبرنا الله تعالى عن ذلك على لسان أحدهم بقوله: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾[١٥٥]، فأشار الله سبحانه وتعالى إلى (الورق) أي: الدراهم المضروبة التي كانت مع الفتية، أي من مالهم الخاص، فذلك للدلالة على أن الفتية عندما آوَوا إلى الكهف لم يتصوّروا أنهم سوف يقضون فيه طيلة هذا الوقت نائمين لا يحتاجون إلى طعام أو شراب، فحملوا معهم نقودا لمواجهة متطلبات الحياة، فهم لم يكونوا متواكلين ينتظرون أن يأتيهم الطعام بلا سبب أو بدون سعي[١٥٦].

وقد تأمل أحمد مصطفى المراغي لفظ ﴿هَـٰذِهِۦٓ﴾ في الجملة في الآية السابقة: ﴿بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ﴾، فذهب إلى أن القائل أخذ معه هذه الورق ليناولها بعض أصحابه، إشارةً إلى الاستعداد لسبيل الحياة، والتأهب لأسباب المعاش بحمل الدراهم والتزوّد بالنقود والأموال ونحوها لمن يريد الخروج من منزله لا ينافي التوكل على الله عز وجل[١٥٧].

---

[١٥٥] سورة الكهف: الآية ١٩.

[١٥٦] أحمد المجدوب، مرجع سابق، ص٢٤٢.

[١٥٧] أحمد مصطفى المراغي، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، تفسير المراغي، بيروت: دار الكتب العلمية، ٥/٣٨٦.

ويبدو من ذلك أن الوقت القليل الذي كان متاحا لهم للهرب إلى الكهف، لم يمكنهم من شراء طعام يستفيدون منه أثناء وجودهم في الكهف، أو أنهم لم يكونوا في حالة ذهنية أو نفسية تسمح لهم بالتفكير في الطعام أو في غيره، وكل ما كانوا يفكرون فيه هو الإفلات من الخطر، فالأمر الذي يهمهم في ذلك الوقت أنهم تضرّعوا إلى الله عز وجل ودعوه لكي يخلصهم مما يوشك أن يصيبهم، حيث أخذوا يتضرعون إلى الله تعالى قائلين: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ﴾[١٥٨].

ويضيف الدارس في هذا الصدد أننا مأمورون بالأخذ بالأسباب، ولكنا لسنا مأمورين بالمبالغة في الحرص عليها، لأن ذلك يؤدي إلى تعلق القلب بها، فالمطلوب الأخذ بها باعتدال مع التوكل على الله، ولذا جاء في الحديث ((أيها الناس اتقوا الله، أجملوا في الطلب، فإن نفسا لن تموتَ حتى تسْتَوْفِيَ رزقَها، وإن أبطأ عنها فاتقوا الله وأجْمِلُوا في الطلب، خُذُواْ ما حَلَّ، ودعوا ما حرُمَ))[١٥٩].

٣) أخذ الحيطة والحذر عند الخروج إلى المدينة:

نلمح أخْذَ الحيطة والحذر في القصة في قوله تعالى: ﴿ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامًا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٍ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ۝ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ۝ ﴾، أي: يجب أن يكون رسولهم لبقا في حديثه، حذراً في حركته، وليختفِ كل ما قدر علي ذلك، فلا يثير الشكوك، لأن لعاقبة كشفه، احتمالين يصيبانهم جميعاً، وهما القتل أو الفتنة، فلا فلاح في كليهما، فلقد بعثوا أحدهم في أخطر مهمة ألا وهي اقتحام أسوار الباطل، وإحضار ما يحتاجون، يقول سيد قطب: "وهم يحذرون أن ينكشف أمرهم

---

[١٥٨] سورة الكهف: الآية ١٠.

[١٥٩] رواه ابن ماجه، كتاب التجارات، حديث رقم (٢١٣٥)، (٢/٧٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٧٣٩)، وصحيح ابن ماجه برقم (١٧٤٦).

ويعرف مخبأهم، فيأخذهم أصحاب السلطان في المدينة، فيقتلوهم رجما، بوصفهم خارجين على الدين، لأنهم يعبدون إلهاً واحدا في المدينة المشركة، أو يفتنوهم عن عقيدتهم بالتعذيب، وهذه هي التي تتقوها، لذلك يوصون الرسول أن يكون حذراً"[١٦٠]. وبعد الأخذ بالأسباب، فقد قدّر الله سبحانه وتعالى غير ما أرادوا، فإن الفتية المؤمنين بعدما أخذوا حذرهم، وتلطف رسولهم لئلا يظهر أمرهم، أعثر الله تعالى عليهم ليقضى أمرا كان مفعولا، ومن هنا ندرك حقيقة القدر الإلهي الذي لا يجعلنا نهمل الأسباب، أو نخطئ أنفسنا إذ أن الأمور كلها بيد الله سبحانه وتعالى.

٣-٤ توحيد الأسماء والصفات[١٦١]

يقصد بتوحيد الأسماء والصفات الاعتقاد الجازم بأن الله عز وجل متّصفٌ بجميع صفات الكمال المطلق، وإثبات ما أثبته سبحانه وتعالى لنفسه، أو أثبته رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات من غير تحريف ألفاظها أو معانيها، ولا تعطيلها بنفيها أو نفي بعضها، ولا تكييفها بتحديد كنهها وإثبات كيفية معينة لها، ولا تمثيلها

---

[١٦٠] سيد قطب، مرجع سابق، ٤/٢٢٦٤.

[١٦١] الفرق بين الاسم والصفة: "أن الاسم: ما سمي الله به، والصفة: ما وصف الله به، وبينهما فرق ظاهر، فالاسم يعتبر علماً على الله عز وجل متضمنا للصفة، ويلزم من إثبات الاسم إثبات الصفة، مثاله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، (غفور) اسم يلزم منه المغفرة، و(رحيم) يلزم منه إثبات الرحمة، ولا يلزم من إثبات الصفة إثبات الاسم، مثل (الكلام) لا يلزم أن نثبت لله اسم المتكلم، بناءً على ذلك تكون الصفات أوسع، لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة متضمنة لاسم، ولكن ينبغي التنبّه إلى أنه ليس كل صفاته تعالى مشتقة من أسمائه، بل إن منها ما هو مشتق من أفعاله، كصفتَي الغضب والرضى مثلا. انظر: محمد بن صالح العثيمين (٢)، مرجع سابق، ١/١٢٢. والقيسي، مرجع سابق، ص١٦٨.

بصفات المخلوقين، ونفي ما نفاه سبحانه وتعالى عن نفسه، أو ما نفاه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من النقائص والعيوب وكل ما ينافي كماله"[١٦٢].

ويتّضحُ من هذا المقصود أن توحيد الأسماء والصفات يقوم على ثلاثة أسس، كم بيّنها محمد نعيم ياسين في الآتي:

الأول : الإيمان بالأسماء والصفات الثابتة في الكتاب والسنة، دون تجاوزها بالنقص منها، أو الزيادة عليها أو تحريفها أو تعطيلها. قال تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾[١٦٣].

الثاني : تنْزيه الله عز وجل عن مشابهة الخلق، وعن أي نقص. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[١٦٤].

الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية هذه الصفات، فيقتضي من العبد المكلف أن يؤمن بتلك الصفات والأسماء المنصوص عليها في الكتاب والسنة من غير سؤال عن كيفيتها، ولا بحث عن كنهها، ولذلك أثِر من السلف أنهم قالوا عندما سُئلوا عن استواء الله عز وجل: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به (أي بالاستواء) واجب، والسؤال عنه بدعة"[١٦٥].

---

[١٦٢] القيسي، نفس المرجع، ص١١٧. ومحمد ياسين، مرجع سابق، ص١٦-١٧. **والتحريف**: أو التغيير والتبديل، وتحريف الكلام إمالته عن المعنى المتبادر منه إلى معنى أخر لا يدل عليه اللفظ إلاّ باحتمال مرجوح، فلا بد فيه من قرينة تبين أنه المراد، أو هو تفسير النصوص بالمعاني الباطلة التي لا تدل عليها مما سمّاه بعض المبتدعين تأويلا. يُنظر: ياسين، مرجع سابق، ص١٩، ومحمد خليل هرّاس، شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، ص٢١. **والتعطيل**: نفي الصفات الإلهية، وإنكار ما يجب إثباته لله تعالى من الأسماء والصفات وإنكار قيامها بذاتها، أو هو نفي للمعنى الحق الذي دلّ عليه الكتاب والسنة. انظر: محمد خليل هرّاس، شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، ص٢١. **والتكييف**: "وهو تعيين كيفية الصفات، وإثبات كُنهها". انظر: ياسين، نفس المرجع، ص٢٠. **والتمثيل** : اعتقاد المثبت أن ما أثبته من صفات الله تعالى مثل صفات المخلوقين. انظر: محمد بن صالح العثيمين، ١٤١٢هـ، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، د.ط/ن، ص٣٣. ومحمد خليل هرّاس، مرجع سابق، ص٢٢.

[١٦٣] سورة البقرة: الآية ١٤٠.

[١٦٤] سورة الشورى: الآية ١١.

[١٦٥] محمد نعيم ياسين، مرجع سابق، ص١٧-١٩.

ويشمل توحيد الأسماء والصفات على النوعين الآخرَين، فهو يقوم على إفراد الله سبحانه وتعالى بكل ما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا التي لا تنبغي إلا له، ومن جملتها كونه ربّا واحدا لا شريك له في ربوبيته وكونه إلها واحدا لا شريك له في إلهيته، فتتضح الصلة الوثيقة بين أنواع التوحيد الثلاثة، فهي متلازمة ومتكاملة لا يوجد بعضها بدون الآخر، ولا يغني اعتقاد بعضها عن الآخر، ولا ينفع نوع دون النوعين الآخرَين[١٦٦].

(١) أقسام الصفات :[١٦٧]

تنقسم صفات الله تعالى باعتبار لزومها لذاته المقدسة وعدم لزومها، إلى ثلاثة أقسام:

أ- **صفات ذاتية** :ويُراد بها الصفات المتعلقة بذاته المقدسة الملازمة لذاته تعالى، وأنها قائمة في الله سبحانه لا ينفك عنها، وهي تنقسم إلى قسمين:

١) صفات ذاتية عقلية شرعية : وسُميت بالعقلية الشرعية لأنها من وسائل الاهتداء إليها بالإضافة إلى الكتاب والسنة، والعقل، مثل: الحياة، والعلم، والقدرة، والحكمة ونحوها.

٢) صفات ذاتية خبرية : وسميتْ خبرية لأنه لا وسيلة للاهتداء إليها سوى الكتاب والسنة، أي لا سبيل للعقل على انفراده إلى إثباتها إلا بطريق السمع والخبر عن الله أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم، مثل: الوجه، اليدين، والعينين ونحوها.

---

[١٦٦] القيسي، مرجع سابق، ص٢٢-٢٣ . (بتصرف)

[١٦٧] انظر ما ورد في هذه الأقسام: العثيمين (٢)، مرجع سابق، ١/١٢٤. العثيمين، مرجع سابق، ص٣٣. وعمر سليمان الأشقر، أسماء الله وصفاته، ص٨٠-٨١. ونومسوك، مرجع سابق، ١/٤٠٠-٤٠١.

ب- **صفات فعلية** : وهي التي تتعلق بمشيئته عز وجل وقدرته من أفعال وِفق علمه وحكمته، وليست لازمة لذاته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، وهي قسمان أيضا:

١) صفات فعلية عقلية: كالخلق، والرزق، والإعطاء والمنع، والإحياء والإماتة، ونحوها.

٢) صفات فعلية خبرية: كالاستواء على العرش، والرضى، والمحبة، والغضب ونحوها.

ج- **صفات ذاتية فعلية** : وهي التي إذا نظرت إلى نوعها وجدت أن الله تعالى لم يزل ولا يزال متصفا بها، وهي لازمة لذاته، وإذا نظرت إلى آحادها وجدت أنها تتعلق بمشيئته، وليست لازمة لذاته، ومثل ذلك كلام الله عز وجل، فإنه باعتبار أصله من الصفات الذاتية، لأن الله سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال متكلما، وباعتبار آحاد الكلام، أي الكلام المعيّن الذي يتكلم به سبحانه وتعالى متى شاء بما شاء، من الصفات الفعلية لأنه كان مشيئته سبحانه وتعالى.

(٢) أبرز صفات الله عز وجل الواردة في القصة:

إن آيات القرآن الواردة في القصة، مليئة بذكر أسماء الله وصفاته وأفعاله، فمن صفاته سبحانه وتعالى ما يلي:

أ- العلم الإلهي:

والمقصود بالعلم: هو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكا جازما بخلاف الجهل والظن والوهم والشك[١٦٨]. والله سبحانه وتعالى العليم بكلّ شيء من غير تعليم، لم

---

[١٦٨] حافظ بن أحمد الحكمي، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، معارج القبول بشرح سُلم الوصول إلى علم الإصول (في التوحيد)، بيروت: دار ابن حزم، ٢٣٧/١ وما بعدها.

يزل ولا يزال عالما، يعلم ما كان وما هو كائن، وما يكون قبل كونه، وما لن يكون أن لو كان كيف يكون، وهو سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة، ويعلم السر والنجوى[١٦٩]، وعلمه تعالى بالكليات كعلمه بالجزئيات، وعلمه أزليّ بأزليّته، وما يبدو في الكون من نظام وإتقان وإحكام ما هو إلا برهان قاطع على شمول علمه وكمال حكمته، وأن الله عز وجل قد سبق علمُه بالكائنات، وأنه قدّر مقاديرها قبل خلْقها، وأنه سبحانه وتعالى قد علم أن الأشياء تصير موجودةً لأوقاتها، على ما اقتضته حكمته البالغة، فكانت كما علم، فإن حصول المخلوقات على ما فيها من غرائب الحكم لا يُتصوّر إيجادها إلا من عالم قد سبق علمُه على إيجادها[١٧٠].

ومن آيات القرآن الكريم في قصة الفتية المؤمنين والتي تشير إلى علم الله سبحانه وتعالى، قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾[١٧١]، هذه الآية إثبات لإحاطة علمه سبحانه وشموله للزمان الذي مكثه الفتية المؤمنون في الكهف، وبيان لعجز الفريقين ونقص علمهما، فتنازعا في مدة مكثهم في الكهف، اختلف المفسرون في الحزبين، منهم من قال: أن أحد الحزبين الفتية والآخر الملوك الذين تداولوا ملك المدينة واحد بعد واحد، وعن مجاهد الحزبان: قوم أهل الكهف حزب منهم مؤمنون وحزب منهم كافرون، وقال الفراء: الحزبان مؤمنان كانوا في زمنهم واختلفوا في مدة لبثهم. وقال السدي: الحزبان كافران والمراد هما اليهود والنصارى الذين علموا قريشا سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل الكهف، وقال ابن حرب: الحزبان الله سبحانه وتعالى والخلق، ولعل الصواب هما اليهود والنصاري[١٧٢].

وأن الله تعالى قد علمَ علما أزليا مدةَ لبث الفتية المؤمنين في الكهف، وأي الحزبين أحصى الأمد، فإن ﴿لِنَعْلَمَ﴾ عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود

---

[١٦٩] القيسي، مرجع سابق، ص١٩٥.

[١٧٠] ابن أبي العز، مصدر سابق، ٣٥٣/٢. والحكمي، مرجع سابق، ٢٣٧/١.

[١٧١] سورة الكهف : الآية ١٢.

[١٧٢] الآلوسي، مصدر سابق، ٢١٢/١٥.

ومشاهدته، أي لنعلم ذلك موجودا[١٧٣]، وقد ترتب عليه تفرقهم إلى مقدار تقديرا غير مصيب ومفوض إلى العلم الرباني، وليس شيء منهما من الإحصاء في شيء، بل يحمل النظم الكريم على التمثيل المبني على جعل العلم عبارة عن الاختبار مجازا بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب[١٧٤].

ومما يشير إلى علم الله تعالى كذلك قوله تعالى عن تفويض الفتية أمر اللبث بعد أن اختلفوا فيه إلى علم الله سبحانه وتعالى، فقال بعضهم: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾[١٧٥]، أي أنتم لا تعلمون مدة لبثكم وإنما يعلمها الله سبحانه، وهذا رد منهم على الأولين بأجمل ما يكون من مراعاة حسن الأدب، وبه يتحقق التحزب إلى الحزبين المعهودين فيما سبق[١٧٦]، وكذلك قوله تعالى: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾[١٧٧]، حكاية عن قول المتنازعين، وهم تناقلوا الكلام في أنساب الفتية المؤمنين وأحوالهم ومدة لبثهم في الكهف، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك، قالوا هذا الكلام، فسلموا العلم إلى الله العليم الحكيم.

أشار سعيد حوى إلى ما أوصانا الله عز وجلّ به بالنسبة لقصة الفتية المؤمنين ومدة لبثهم، لندرك سرّ قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾[١٧٨]، وسر قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾[١٧٩]، وأن فيهما مظهر من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم، يدلنا على أن مُنزّل هذا القرآن هو الله المحيط علما بكل

---

[١٧٣] البيضاوي، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، تفسير البيضاوي، بيروت : دار الفكر، ٣٦٤/١٠.

[١٧٤] محمد بن محمد العمادي أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ٢٠٧/٥. جُعل حصول علم الله عز وجل بحال الحزبين علةً لبعثه إياهم كناية عن حصول الاختلاف في تقدير مدتهم، فإنهم إذا اختلفوا عَلِمَ الله تعالى اختلافهم علمَ الواقعات، وهو تعلّق للعلم يصح أن يطلق عليه تنجيزي. انظر: ابن عاشور، مصدر سابق، ٢٦٩/٧.

[١٧٥] سورة الكهف: الآية ١٩.

[١٧٦] والآلوسي، مصدر سابق، ٢٢٩/١٥.وأبو السعود، مصدر سابق، ٢١٣/٥.

[١٧٧] سورة الكهف: الآية ٢١.

[١٧٨] سورة الكهف: الآية ٢٢.

[١٧٩] سورة الكهف: الآية ٢٦.

شيء، وغيره سبحانه وتعالى لا يعلم شيئا عن الفتية المؤمنين، وذلك مما أورده من أخبار اضطراب أقوال المؤرخين السوريين ومؤرخي الإغريق في تعيين سنة اليقظة والخروج إلى المدينة"[١٨٠].

تذكر آيات القرآن الكريم الآنف ذكرها ما يتعلق باختلاف الناس في عدد الفتية المؤمنين موصيةً الرسول صلى الله عليه وسلم أن لا يلقي بالاً إلى هذه القضية، مؤكدةً أنه لا يعلم عددهم ولا مدة لبثهم في الكهف إلا الله العليم الخبير، فالله وحده يعلم أحداثًا ماضية، كما أنه وحده يعلم أحداث المستقبل، ولذلك عاتبَ نبيّه صلى الله عليه وسلم أن لا يقول لشيء إلا بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ويلجأ دائما إلى ذكر الله وإلى طلب الهدى منه وحده، فلا ملجأ لأحد إلا الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّى لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا﴾، وإلى تلاوة كتابه، كما قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ۝﴾.

كما يبين الله عز وجل في قصة موسى عليه السلام والخضر الفرق بين علمه وعلم البشر، ويعرض العلم على أنه قيمة صحيحة ظاهرة وقيم صحيحة أخرى غيبية في علم الله المحيط بالحقائق التي تدار شؤون الكون بها، ومجاله الإيمان المطلق والتسليم لعالمه عز وجل الذي أحاط بكل شيء علما: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأۡنٍ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝﴾[١٨١]. فهذه القصة خير مثال لتجسيد الفارق بين الحكمة الإنسانية العاجلة والحكمة الكونية الخالدة، إن موسى عليه السلام يطلب العلم ويتعجله، ويجدّ في تحصيله، ويسعى إلى

---

[١٨٠] سعيد حوى، مرجع سابق، ٦/٣١٧٦-٣١٧٧. (بتصرف).

[١٨١] سورة يونس : الآية ٦١.

الاستزادة بإلحاح المنتظر، سواء أكان ذلك مما يتفق مع طبيعة الأشياء ومجريات الأمور أم لا يتفق.

ب- الإرادة والمشيئة:

الإرادة والمشيئة هما بمعنى واحد، وقد دلت النصوص القرآنية التي اشتملت على لفظي الإرادة والمشيئة أو مشتقاتهما، على أن ما شاء الله أو أراده، فعله لا محالة، وعلى أنه لو شاء شيئا أو أراده لفعله، وعلى أن كل شيء لم يشأه الله أو لم يرده لم يفعله، وعلى أن كل شيء شاء الله أو أراد أن لا يكون فإنه لا يمكن أن يكون، وأن كل شيء شاء الله أو أراد أن يكون فإنه لا بد أن يكون، فإرادة الله نافذة حتما في كل ما يشاء وجودا وعدما[١٨٢].

والمقصود بهما: أن الله تعالى لم يزل ولا يزال موصوفا بأنه يفعل ما يريد، وأنّ كل ما يريده يفعله، وأن كل ما فعله فقد أراده، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والنص الذي يدل على أنه لا يوجد شيء في الكون إلا أن يشاء الله إيجاده أو يأذن بوجوده، فهو يدل على أن مشيئة الله نافذة حتما، وأنه إذا لم يشأ وجود شيء لم يوجد حتما، فمن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾[١٨٣]، أي: وما تكون لكم سلطةُ مشيئة إلا أن يمنحكم الله وحده هذه السلطة وجهازَها في أنفسكم، حتى تشاءوا بها ما تريدون ضمن حكمة اختياركم في رحلة الحياة الدنيا[١٨٤]. وقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ

---

[١٨٢] الميداني، مرجع سابق، ص٥٨.

[١٨٣] سورة الإنسان: الآية ٧٦.

[١٨٤] الميداني، نفس المرجع، ص٧٩.

[١٨٥] سورة البروج : الآية ١٦.

أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[١٨٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١٨٧].

ومما يرد في قصة الفتية المؤمنين حول إرادة الله ومشيئته قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾[١٨٨]، وهي من نوع إرادة قدرية كونية خَلْقية، وهي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات، وتتعلق هذه الإرادة بما ليس للإنسان اختيار، وليس لأحد خروج منها ولا سبيل إلى مخالفتها، كخلق السموات والأرض، والموت، والحياة ونحوها، وهي التي لا يناط بها تكليف الإنسان، ولا إثابته ولا معاقبته، وهي الإرادة التي كان بها القدر ونظامه[١٨٩].

ويذكر الميداني في هذا الصدد أن الآية تدل على أنه من المستحيل عقلا وشرعا توقُّف تحقيق إرادة الله على إرادة أحد من عباده، إن شاء حقّقها وإن شاء لم يحقّقها، بل مرادات الله في كونه تامة منَجَّزة ضمن حدودها، وعند أقصى مداها[١٩٠].

ولما كانت إرادة الله عز وجل مطلقة وكاملة، وصالحة للتعلق بكل الممكنات، فكيف نتصور أن تكون للإنسان أيضا إرادة إلى جانبها؟ وقد علمنا ببراهين التجربة والمشاهدة: أن الإنسان يريد ويختار في كثير من سلوكه وتصوراته، فما نوع هذه الإرادة وحقيقتها، بل وما مصيرها في جنب إرادة الله عز وجل؟، والجواب: أن الله عز وجل لما خلق الخَلق أقامه على الحركة والتصرف، و ينشأ عن سر عجيب خاص أودعه تعالى في الإنسان، ألا وهو الاختيار والإرادة، فقد تعلقت إرادة الله بأن يغرس في كيان الإنسان هذا السر العجيب الذي هو محور التكليف فيه، وأن يجعله يصدر في كثير من تصرفاته عن هذا السر الذي به سمي حرًّا ومختارًا، وأن مصير الإرادة الإنسانية في جنب

---

[١٨٦] سورة الكهف: الآية ٨٢.

[١٨٧] سورة يس: الآية ٨٢.

[١٨٨] سورة الكهف: الآية ٢٣-٢٤.

[١٨٩] الحكمي، مرجع سابق، ٢٣٠/١. ومنى بنت عبد الله، مرجع سابق، ص١٠٥.

[١٩٠] الميداني، مرجع سابق، ص٤٣.

إرادة الله، فإرادته المتعلقة بتصرفاته الاختيارية منطوية تحت إرادة الله، ولكن لا على طريق القسر والإكراه، وإنما عن طريق بثّ سر الإرادة والاختيار في كيانه[١٩١].

فقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[١٩٢]، عتاب الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم، وإرشاده له أن الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يردّ ذلك إلى مشيئة الله عز وجل، علاّم الغيوب الذي يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، لأنه صلى الله عليه وسلم لما جاءه اليهود سألته عن أصحاب الكهف والروح، فقال لهم: سأخبركم غدا، ولم يقل: إن شاء الله. فلم ينْزل الوحي إلا بعد فترة، فحزن الرسول صلى الله عليه وسلم فيها حزنا شديدا، وقال في ذلك اليهود: ذهب عنه شيطانه[١٩٣]، ولما نزل الوحي بالإجابة، نزل معه تصحيح وتحديد السبب الذي من أجله تأخر التزول، وكذلك هذا تأديب من الله لنبيه أن يعلق كل ما يعزم عليه من فعل على مشيئة الله تعالى.

ورأى سيد قطب أن المقصود من الآية السابقة كل نفس من أنفاس الحي مرهون بإرادة الله عز وجل، وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان لا يفكر في أمر المستقبل ولا يدبر له، وأن يعيش يوما بيوم، لحظة بلحظة، وألا يصل ماضي حياته بحاضره ومستقبله، كلا، ولكن معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التي تدبره، وأن يعزم ما يعزم ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم، ويستشعر أن يد الله فوق يده، فلا يستبعد أن يكون لله تدبير غير تدبيره، فإن وفقه الله إلى ما اعتزم فيها شكره سبحانه وتعالى، وإن جرتْ مشيئة الله بغير ما دبر لم يحزن ولم ييأس، لأن الأمر لله أولا وأخيراً، فليفكر الإنسان وليدبر، ولكن ليشعر أنه إنما يفكر بتيسير الله، ويدبر بتوفيق الله، وأنه لا يملك إلا ما يمدّه الله به من تفكير وتدبير، ولن يدعو هذا إلى كسل أو تراخٍ، أو ضعف أو فتور، بل على العكس يمده بالثقة والقوة والاطمئنان والعزيمة، فإذا انكشف ستر الغيب عن تدبير الله غير

---

[١٩١] مصطفى سعيد الخن، مرجع سابق، ص٤٦٧-٤٦٨.

[١٩٢] سورة الكهف: الآية ٢٣-٢٤.

[١٩٣] رواه مسلم، حديث رقم (٢٧٩٤).

تدبيره، فليتقبل قضاء الله بالرضى والطمأنينة والاستسلام، لأنه الأصل الذي كان مجهولا له فكشف عنه الستار[١٩٤]. فالفتية المؤمنون أرادوا أن يفروا بدينهم من الاضطهاد فلجأوا إلى الكهف واستراحوا فيه فترة من الزمن، ثم واصلوا سيرهم بعد تلك الاستراحة القصيرة، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد غير ذلك ليكون أمرهم آيات لقدرته تعالى، وجعل شأن نومهم الطويل دليلاً على البعث يوم القيامة.

ج- قدرة الله:

ومما يدل على مظاهر قدرة الله تعالى في القصة ما يلي:

١) قدرة الله على إنامة الفتية:

إن الله تعالى قادر على أن يخلق ما هو أعجب من إنامة الفتية المؤمنين لمدة طويلة على غير عادة البشر، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾[١٩٥]. ومعنى الآية: أتستبعدون قدرة الله الذي خلق السماوات والأرض على أن يرقد بضعة أناس ثلاثة قرون أو أكثر، ثم يوقظهم شبابا أصحاء كما أرقدهم؟، هناك مما خلقنا ما هو أعجب من ذلك، وهذا الكلام من الله سبحانه وتعالى يدل على القدر الحقيقي من الأهمية التي وردت في قصة الفتية المؤمنين، فهي معجزة بسيطة من معجزات الله الكثيرة التي تتفاوت في الأهمية بحسب ما فيها من دلالة على قدرته سبحانه وتعالى، فخلق السماوات والأرض أعظم أهمية بلا شك، وخلق الإنسان، وتسيير الرياح، وحركة الأفلاك وغيرها تفوقها في الأهمية، وأن إماتة الأحياء بعد حياتهم أعظم من عجب إنامة الفتية، لأن في إنامتهم إبقاءً للحياة في أجسامهم، وليس في إماتة الأحياء

---

[١٩٤] سيد قطب، مرجع سابق، ٤/٢٢٦٥.

[١٩٥] سورة الكهف: الآية ٩.

بالنسبة للبشرية إبقاءً لشيء من الحياة فيهم على كثرتهم وانتشارهم، فمعجزة الفتية المؤمنين على الرغم مما تضمنه الخروج على مألوف العادة وتعارضها مع قوانين الحياة، فإنها بالقياس إلى قدرة الله التي لا يرد عليها قيد، تعد أمرا بسيطا [١٩٦].

ومن مظاهر قدرة الله عز وجل في هذه القصة، أنه قد ضرب على آذان الفتية المؤمنين، وأنامهم في الكهف مدة طويلة، يقول الله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝﴾[١٩٧]. والضرب على الآذان كناية عن الإنامة، لأن النوم الثقيل يستلزم عدم السمع لأن السمع السليم لا يحجبه إلا النوم، بخلاف البصر الصحيح، فقد يحجب بتغميض الأجفان[١٩٨]، ويجمل قول الشعراوي هنا إذ يقول:

"إنك لو فصلت الأذن عن ضوضاء الدنيا، فإن الإنسان يمكن أن ينام فترة طويلة، ولكنه من المستحيل أن ينام إذا تعرضت الأذن لضوضاء الدنيا، ومن هنا فإن الله عز وجل حين أراد أن يجعل الفتية المؤمنين ينامون سنين طويلة دون أن يحسّوا بما حولهم، فإنه لم يأخذ أبصارهم، و لم يجعل حركة قلوبهم تهبط قليلا كحركة النائم، ولكنه ضرب على آذانهم، وكان هذا كافيا جدا ليفصل بينهم وبين الدنيا تماما طوال فترة نومهم"[١٩٩].

ومن الطبيعي أن الإنسان ينام يوما أو بعض يوم، ولذلك حينما استيقظ الفتية المؤمنون من النوم، بدر منهم أولاً السؤال عن الوقت الذي قضوه في نومهم، وبعضهم قال: يوما أو بعض يوم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، رأى الشعراوي أن الله عز وجل قد وقّف تأثير الوقت عليهم، وفي ذلك الوقت هؤلاء فوق تأثير الوقت، فلم يكن عندهم ما يحدد لهم الزمن الذي قضوه خلال فترة

---

[١٩٦] ابن عاشور، مصدر سابق، ٢٥٩/٧. والمجدوب، مرجع سابق، ص١٨٥.

[١٩٧] سورة الكهف: الآية ١١.

[١٩٨] ابن عاشور، نفس المصدر، ٢٦٨/١٥.

[١٩٩] محمد متولي الشعراوي (٢)، د.ت، معجزة القرآن، مجلد٩، ص٥٧.

النوم، فحدّدوه على أساس العادة، فالإنسان عادة لا ينام إلا جزءًا من اليوم أو على أقصى تقدير يوما بأكمله إذا كان في غاية الإرهاق، وأنّ هذا الأمر عادي بالنسبة للنائمين، وأنهم لا يشعرون بالوقت، و لم يعرفوا كم ساعة ناموا فيها، إلا إذا حدد الساعة في بداية نومه وينظر إليها عند الاستيقاظ، بمعنى فلا بد من وجود القياس الخارجي لتقدير الوقت، وإلا فلا[٢٠٠].

عندما نظر الدارس إلى ما حلّ بالفتية المؤمنين، رأي ما رآه الشعراوي من حيث أن لهم مقياسا خارجيا يعرفون به مدة نومهم من تأثير الوقت على أجسامهم، وإن كانوا تحت تأثير الزمن، لأن النوم لمدة طويلة يستلزم علامات تدل على طول الزمن، مثل بياض الشعر، وضعف البدن، وذبول الوجه والجلد، وغيره من تأثيرات الزمن، ولكن الله عز وجل قد أبطل قياس الزمن عليهم، فلا يقعون تحت تأثير الزمن، لذلك عندما استيقظوا من النوم لم يجدوا أي تغيير في الوجوه والأبدان، و لم يروا تأثير الزمن على أجسادهم ولا على وجوههم، بل بُعثوا على نفس الهيئة التي ناموا عليها، ولذلك ظنوا أنهم لبثوا يوما أو بعض يوم.

وتشبه هذه الحادثة ما حدث مع العبد الصالح الذي قد أخبر عنه الله عز وجل في القرآن الكريم في قوله: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ﴾[٢٠١]. في هذه الآية يريد الله عز وجلّ أن يلفتنا إلى مطلق قدرته في الكون، وأن الكون الذي يعمل بالأسباب التي خلقها الله تعالى فيه القدرة المطلقة التي هي فوق الأسباب، فلا يمكن أن تكون الأسباب –وهي من خلق الله تعالى– قيداً علي الخالق سبحانه وتعالى، وهذا العبد مرّ على قرية أنزل الله عليها العقاب بذنوب أصحابها وفسادهم، وهي خاوية على عروشها، فتساءل عن قدرة الله في إحيائها مرة ثانية، وعندئذ أرادت مشيئة الله تعالى أن تُريه علامات قدرته تعالى بالتجربة، فأماته مائة

---

[٢٠٠] محمد متولي الشعراوي، د.ت، أهل الكهف، ص١٢-١٣. والشعراوي (٢)، مرجع سابق، ص٩٣.

[٢٠١] سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

عام ثم بعثه بعد ذلك، ولما عادت الحياة إليه، لم يكن فيه شيء قد تغيّر، بل أحياه على نفس الهيئة التي مات عليها، وحينئذ سأله الله تعالى عن الوقت الذي مات فيه، فأجاب : يوما أو بعض يوم قياسا على عادة النوم عند الإنسان، أجاب بذلك لأنه لا يشعر بأي تغيير في الجسد، فأخبر الله تعالى بالفترة التي نامها بقوله تعالى: ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢٠٢].

أعطى الله سبحانه وتعالى الرجل الصالح الدليل المادي على ذلك، فأمره أن ينظر إلى طعامه وشرابه الذَين بقيا على حالهما قبل موته، فوجد الطعام لم يتغيّر، مع أنه قد مضى عليه مائة عام، ثم طلب منه أن ينظر إلى حماره، فوجد أنه قد مات ولم يبقَ منه إلا عظاما نخرةً، أي: أنه مات ثم تعفّن ثم تحلّل حتى أصبح عظاما نخرة، فأدرك أن ذلك لا يمكن أن يحدث في يوم واحد، بل لابد له من فترة طويلة.

ولقد كان في مرور الزمن على الحمار وتوقّفه عن الطعام آيتان تدلان على أن الله تعالى يستطيع بمطلق قدرته أن يجعل من الأحداث التي تقع في الزمن الواحد صورا شتي، وذلك أن الله عز وجل ترك تأثير الوقت على الحمار، وأبطل تأثيره على الطعام والشراب، فلا يقدر على هذين الأمرين في نفس الوقت إلا الله القدير، وهو قادر على جميع خلقه، وكل هذا إشارة إلى أن الله قادر على البعث يوم القيامة.

٢) إيقاظهم من النوم الطويل:

ومن مظاهر قدرة الله تعالى إيقاظهم من النوم الطويل، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾[٢٠٣]، لأن البعث في

[٢٠٢] سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

[٢٠٣] سورة الكهف: الآية ١٢.

الاصطلاح: هو إحياء الله تعالى للموتى على وجه مخصوص، وكيفيته لا نعلمها، لإحقاق الحق وإبطال الباطل، ولإثابة الطائعين، ومعاقبة العاصين، كلّ بما قدّم من عمل[٢٠٤]. وهو إذن إحياء الموتى بأجسادهم بعد الموت وخروجهم من القبور، ولكن المراد بالبعث في الآية السابقة الإيقاظ، أي أيقظناهم من نومتهم يقظة مفزوع، كما يبعث البعير من مبركه، وأن المقصود في هذه القصة إثبات البعث بعد الموت، فكان في ذكر لفظ البعث تنبيه على أن هذه الإفاقة دليل على إمكان البعث[٢٠٥]، فالله سبحانه وتعالى القادر على بعث الناس من النوم إلى اليقظة، قادرٌ على بعث الموتى من قبورهم إلى الحياة مرة أخرى لينال كل جزاءه.

وقوله (لإثابة الطائعين، ومعاقبة العاصين) يخرج به ما أراد الله تعالى جعله آية للناس وبينة كقصة الفتية المؤمنين والعزير، فلم يكن بعثهم من أجل إثابتهم أو معاقبتهم، بل كان ذلك إثباتا لقدرة الله على البعث، وأن من أحيا فردا أو جماعة، قادر على بعث الناس جميعا، وكان ذلك أيضا لإقامة الحجة على من يكذّب به وينكره، والله عز وجل يبعث الخلق بعد الموت يوم القيامة، والآيات القرآنية تتحدث عن بعث الإنسان يوم القيامة بجسده، مثلا قول الله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾[٢٠٦]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾[٢٠٧]، فالمنكر في هذه الآية سأل عن كيفية إحياء العظام وهو شيء حسي، والله عز وجل أجاب بأنه قادر على إحياء ذلك الشيء الحسي لأنه خلقه أول مرة، ويلاحظ أن المنكر يسأل عن كيفية، وكذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ

---

[٢٠٤] الدغامين، زياد خليل محمد، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، عقيدة البعث وكيف تناولها القرآن الكريم، رسالة ماجيستير في التفسير من قسم أصول الدين، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، ص٣٧.

[٢٠٥] ابن عاشور، مصدر سابق، ١٥/٢٦٩.

[٢٠٦] سورة المطففين : الآية ٤-٦.

[٢٠٧] سورة يس: الآية ٧٨-٧٩.

يَعۡمَلُونَ﴾[٢٠٨]، لقد أثبت القرآن الكريم السمعَ والأبصار والإحساس وكل هيئة الإنسان التي كان عليها في الدنيا لمن يبعث يوم القيامة.

٣) إمالة الشمس عن الكهف.

ومن عناية الله تعالى قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ ﴾[٢٠٩]. وتدل هذه الآية على كمال قدرته تعالى في تدبير أحوال الفتية المؤمنين، يقول بعض المفسرين[٢١٠] في تفسير الآية: اختار الله تعالى لهم مضجعا في مكان لا تدخل عليهم الشمس ويقع شعاعها عليهم فيؤذيهم بحرّها، وتغيّر ألوانهم وهم في متّسع ينالهم برْد الريح، لأن الكهف كان جنوبيا، إذا غربت الشمس تقطعهم وتصرم عنهم يمين الكهف وشماله لقوله: ﴿ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُ﴾ أي: وهم في متسع من الكهف يعني وسطه، حيث ينالهم روح الهواء ولا يؤذيهم كرب الغار ولا حر الشمس، والشمس إذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الأيمن، وهو الذي يلي المغرب، وتغرب محاذية لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جانبيه، ويحلل عفونته ويعدل الهواء، بحيث يدخل الهواء إليهم من باب الكهف بالقدر الذي يحتاجون إليه في التنفّس أثناء نومهم.

---

[٢٠٨] سورة فصلت : الآية ٢٠.

[٢٠٩] سورة الكهف : الآية ١٧.

[٢١٠] منهم: القرطبي، مصدر سابق، ٣٦٩/١٠. والبيضاوي، مصدر سابق، ٤٨٣/٣. والآلوسي، مصدر سابق، ٢٢٢/١٥-٢٢٣.

وقال سيد قطب في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾: إن في هذه الآية التي تدل على قدرات الله عز وجل، أنه سبحانه وتعالى يعلّق على هيئتهم في الكهف بأحد التعليقات القرآنية التي تتخلل سياق القصص لتوجيه القلوب في اللحظة المناسبة[٢١١].

٤) قذف الرعب في قلوب من اطّلعوا عليهم.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾[٢١٢]، أي لو اطلع عليهم أحد لولّى منهم فرارا وقد امتلأ رعبا، ومعنى هذا أن الكهف كان مفتوحا والكلب راقد على بابه وقد بسط ذراعيه، إضافة إلى ما ذكره الله تعالى أنه كان يقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال، وأن الفتية كانوا بوجودهم في الكهف نائمين مفتوحي الأعين، يتقلّبون مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال دليلا على حدوث المعجزة في إدخال الرعب في قلوب الناظرين إليهم، فهذه الحالة كانت لغاية معينة أرادها الله سبحانه وتعالى منهم، وبقدرته تعالى يربط حالة رقودهم بأمر البعث، فلذلك يرى الدارس أن الفتية المؤمنين كانوا محل معاينة ومشاهدة من الناس، ولم يكونوا مجهولين أثناء المدة التي لبثوها في الكهف، وأن الكهف كان معلوما لقومهم الذين كانوا يمرون عليه ويشاهدونهم في نومهم يوما بعد يوم، عاما بعد عامٍ، ويروون قصتهم لأبنائهم وأحفادهم جيلا بعد جيلٍ، وهؤلاء يعاينونَهم كلما ساقتهم أقدامهم إلى المنطقة التي يوجد فيها هذا الكهف، ولكنهم لا يجرءون على الاقتراب منهم، بل إنهم ما يكادون ينظرون إليهم حتى يولوا منهم فرارا، وقد قذف الله عز وجل في قلوبهم الرعب، ويجعلهم يفرون منهم.

ومما يؤكد على جعْل الله عز وجل الرعب في قلوب المارين على الفتية المؤمنين أثناء نومهم العميق في الكهف خطاب الله تعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

---

[٢١١] سيد قطب، مرجع سابق، ٤/٢٢٦٣.

[٢١٢] سورة الكهف: الآية ١٨.

بالآية السابق ذكرها، فهذا الخطاب تخصيص له صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ذكر المجدوب أن هذه الجملة تدل على مدى ما كان بسببه وجودهم بهذا الوضع من رعب يدفع إلى الفرار، ذلك أنه إذا كان الرسول المبعوث من الله، والذي يتميّز بقوة العزيمة والشجاعة، ورباط القلب، سيولي منهم فرارا، ويمتلئ رعبا إذا اطلع عليهم، فما بالنا بغيره من الناس؟ لا ريبَ أن رعبهم سيكون أعظم، وفرارهم سيكون أسرع[٢١٣].

٥) بعثُ الفتية على الهيئة التي ناموا عليها.

من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى الباهرة بعثُهم وإيقاظهم من نومهم على الهيئة التي ناموا عليها، ليعرفوا عظيم سلطانه، وعجيب فعله في خلقه، وليزدادوا بصيرة في أمرهم الذي هم عليه من براءتهم من عبادة الآلهة وإخلاصهم لعبادة الله وحده لا شريك له، وفي أثناء استيقاظهم من النوم الطويل وهم على حال في كامل صحة أبدانهم، وحفظ أجسامهم وأشعارهم وأبصارهم من البلى والتحلل على طول الزمان، وثيابهم من التعفّن على مر الأيام، ولم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئا تذكيرا بقدرته تعالى على الإنامة والموت والبعث، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ولهذا تساءلوا بينهم وتعرّفوا حالهم وما صنع الله عز وجل بهم، فقال بعضهم: لبثنا يوما أو بعض يوم، لأن دخولهم إلى الكهف في أول نهار وإستيقاظهم كان آخر نهار، ولهذا استدركوا فقالوا: (أو بعض يوم)[٢١٤]، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ﴾[٢١٥].

---

[٢١٣] راجع : المجدوب، مرجع سابق، ص٢١٢-٢١٥.

[٢١٤] الطبري، تفسير الطبري، ١٥/ ٢١٦. ابن كثير، مصدر سابق، ٧٧/٣. أبو السعود، مصدر سابق، ٢١٣/٥.

[٢١٥] سورة الكهف: الآية ١٩.

د- تسيير الرحمة ونشرها.

مما ورد في تسيير الرحمة قول الله تعالى على لسان أحد من الفتية المؤمنين:- ﴿ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾[٢١٦]، إذ أن الرحمة التي حوتْها قصة الفتية المؤمنين تدل على أن المتصرف هو الله تعالى. وكذلك فإن في هذه القصة دلالة على رحمة الله لهم وعنايته بهم، فتصلح أحوالهم، ويطمئن بالهم. ومن يعش مع أحداث هذه القصة، ويتفاعل معها، يلمس عظم صبرهم على قومهم، ويدرك أنها تمثل الجانب التطبيقي للعقيدة، بحيث يسّر الله لهم سبيل الهداية والرحمة، وقيادتها إلى ترسيخ العقيدة في قلوبهم، وامتثالها في حركاتهم وأفعالهم. يذكر مصطفى مسلم أن الفتية كانوا في طريقهم إلى الكهف وهم منهمكون في ما هم عليه من حال، وما سيكون عليه العمل، وكانت عناية الله عز وجل وإرادته تهيء لهم شيئا أعظم من ذلك لتكفيهم مؤنة الجهد والمشقة، فوصلوا إلى الكهف حتى ضرب الله على آذانهم فيه سنين عددا، وهُيأت لهم مكان إقامة تتوافر فيه الشروط الصحية الملائمة من شمس وتهوية وبُعد عن الظلام[٢١٧].

قال سيد قطب: "وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة، فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم، ويهجرون ديارهم، ويفارقون أهلهم، ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة، هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم، هؤلاء يسترحمون رحمة الله، ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾، ولفظة ﴿يَنشُرۡ ﴾ تلقى ظلال السعة والبُحبوحة والانفساح"[٢١٨]. والبحبوحة من كل شيء أي: وسَطُه وخياره[٢١٩] .

---

[٢١٦] سورة الكهف : الآية ١٦.

[٢١٧] مصطفى مسلم، مرجع سابق، ص٢٠٧.

[٢١٨] سيد قطب، مرجع سابق، ٢٢٦٢/٤.

[٢١٩] إبراهيم مصطفى وغيره، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢، المعجم الوسيط، الطبعة الثانية، استنبول: المكتبة الإسلامية، مادة (بحبح)، ص ٣٩.

هـ- الهداية والإضلال.

ومن أبرز صفات الله تعالى الهداية والإضلال، يقول الله تعالى:﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[٢٢٠]، لا يتم التوحيد حتى يحصل الاعتقاد بأن الهدى والضلال بيد الله عز وجل وحده، فلا هداية لأحد إلا بإذنه ومشيئته سبحانه وتعالى، وهذا ينسجم مع تحقيق ربوبيته تعالى، فالتوفيق للهدى والضلال من عند الله لا من الناس، وهو بقدر الله تعالى لا ينسب إلى المخلوق، وهو خاص بمن وفقه الله واختصه بعنايته، قال تعالى مُخاطبا لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[٢٢١]. وكما أن الله خالق الهدى وأنه يهدي من شاء أن يهديه، فهو خالق الضلال، يُضلّ من شاء أن يضله، وإضلال الله للعبد لا يكون بمنع الهدى وسلبه منه، وإنما يكون بعدم إعطاءه إياه، وفرق بين أن يُسلَب العبد شيئا هو له، وأن لا يُعطى شيئا ليس له[٢٢٢].

وإذا كان الله عز وجل يُضلّ ويهدي، فليس للعبد حرية الاختيار، وقد راجع السيد سابق إلى الآيات القرآنية، فاستنتج بأن الهداية والإضلال نتائج لمقدمات، ومسببات لأسباب، وهناك أسباب توصل إلى الهداية، وأسباب توصل إلى الضلال، فالهداية إنما هي ثمار عمل صالح، والضلال إنما هو نتائج عمل قبيح، فإسنادهما إلى الله سبحانه وتعالى من حيث أنه وضع نظام الأسباب والمسببات، لا أنه أجبر الإنسان على الضلال أو الهداية[٢٢٣]. وأشار المراغي في قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ﴾، إلى أن فيها إيماء

---

[٢٢٠] سورة الكهف: الآية ١٧.

[٢٢١] سورة القصص: الآية ٥٦.

[٢٢٢] القيسي، مرجع سابق، ص٤٦-٤٨. (بتصرف)

[٢٢٣] السيد سابق، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، العقائد الإسلامية، القاهرة : دار الفتح للإعلام العربي، ص٩٢. (بتصرف).

إلى أن الفتية المؤمنين أصابوا سبيل الحق، ووُفقوا لتحقيق ما أملوا من نشر الرحمة عليهم وتهيئة المرفق[٢٢٤].

٣-٥ الشرك بالله سبحانه وتعالى

أولاً: تعريفه والمقصود به:

الشرك ضد التوحيد، ومعناه: "إثبات شريك لله تعالى فيما هو من خصائص الألوهية والربوبية، باتخاذ شريك لله في ذاته القدسيّة، أو في صفاته العليا، أو في أفعاله"[٢٢٥]، والمقصود به: الاعتقاد بأن لله شريكا في ذاته، أو في صفاته، أو في ألوهيته، أو في عبادته، أو في ملكه[٢٢٦]. وبذا يكون الشرك ضد التوحيد، كما أن الكفر ضد الإيمان.

ثانيًا: أقسام الشرك:

ينقسم الشرك إلى أنواع أربعة، هي:

(١) عبادة غير الله، بأن يتخذ مع الله سبحانه وتعالى أو من دونه إلها آخر يعبده بنوع من أنواع العبادة، فيساوي بين الله تعالى وبين الأنداد، سواء كان من حجارة أو أصنام أو أشجار أو حيوان أو قبور أو أجرام سماوية أو قوى طبيعية، أو اتخاذ البشر آلهةً، أو

[٢٢٤] المراغي، مصدر سابق، ٣٨٣/٥.

[٢٢٥] عبد المجيد عزيز الزيداني، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، كتاب توحيد الخالق، جدة: مكتبة دار المجتمع، ٦١/٣.

[٢٢٦] القيسي، مرجع سابق، ص٢٣٥.

الاعتقاد بأن الله قد حلّ ببشرٍ، أو أن له بنين وبنات، وهذا أعظم الشرك، ولا يغفره الله تعالى لصاحبه إن مات عليه، لأنه يناقض أصل التوحيد، ويخرج صاحبه عن الملة، ويحبط عمله ويخلّده في النار، وبناء عليه فإن كل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشرع فصرفه لله وحده توحيد، وصرفه لغيره سبحانه وتعالى شركٌ.

(٢) إشراك بعض المخلوقات في بعض صفات الله عز وجل، كالاعتقاد بالتثليث[٢٢٧]، وأن الابن وروح القدس كما يزعم النصارى لهما صفة الأبدية والقدرة الإلهية والعلم الإلهي، أو أن هناك خالقاً للشرّ وخالقا للخير، أو أن للمادة صفة أبدية لا بداية لها كما يزعم الماديون.

(٣) اتخاذ بعض الناس بعضهم أربابا، وأنه عندما نزل قول الله تعالى في شأن أهل الكتاب من يهود ونصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٢٢٨]، قال عدي بن حاتم – وكان مسيحياً قبل دخوله في الإسلام- للرسول صلى الله عليه وسلم: إن النصارى واليهود لم يعبدوا أحبارهم ورهبانهم، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم، ذلك أن الكون مخلوق الله ومملوك له، فليس لأحد غيره أن يتصرّف في شيء إلا بإذنه، وليس لأحد من الناس أن يحلّل ويحرّم في ملك الله بدون إذنه، وليس لأحد أن يحكم في ملك الله بدون إذن المالك لهذا

---

[٢٢٧] راجع حول إبطال القرآن الكريم لعقيدة التثليث في: http://www.alhakekah.com/trinity-folder/trinity_١٠.htm

[٢٢٨] سورة التوبة: الآية ٣١.

الوجود، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾[٢٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٢٣٠]، وليس لأحد أن يحكم في جزء من ملك الله ومخلوقاته بما يناقض حكم الله، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٢٣١]، وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٢٣٢]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[٢٣٣]، وقد ذكر سبحانه الأنواع السابقة في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٢٣٤].

(٤) اتباع الهوى وطاعته، فلا يهوى الإنسان شيئًا إلا أتبعه، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[٢٣٥]، وقد جعل الله اتباع الهوى شركًا، لأن طاعة غير الله فيما لم يرضَ به الله تعالى يُعدّ شركاً[٢٣٦].

---

[٢٢٩] سورة الشورى : الآية ٢١.

[٢٣٠] سورة القصص : الآية ٧٠.

[٢٣١] سورة المائدة: الآية ٤٤.

[٢٣٢] سورة المائدة: الآية ٥٠.

[٢٣٣] سورة النساء: الآية ٦٥.

[٢٣٤] سورة آل عمران: الآية ٦٤.

[٢٣٥] سورة الفرقان: الآية ٤٣.

وثني أو ملك ظالم يريد أن يكرههم على عبادة الأوثان، وفاتوا (أي: المفسرون) أن الله تعالى لو رأى أن في ذكر مثل هذه التفاصيل فائدة تعود على الناس لذكرها، فقد ذكر الملك الذي يأخذ كل سفينة غصبا، وذكر العزيز، وذكر فرعون وغيرهم، فلو أنه كان في القصة ملك لذكره سواء في أول القصة أو في آخرها، ولكنه ذكر قومُ الفتية بشكل واضح، وذلك في قوله تعالى: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾، و(قومٌ) غير مَلك، ولعل الذي دعا المفسرين إلى إضافة هذه التفاصيل المناقضة لسياق القصة ولمعاني الكلمات الواردة بها، هو اعتقادهم أن المعجزة يجب أن تكون شائعة ومشهورة، ومحل معاينة من جانب عدد كبير من الناس، وبالذات من علية القوم، أو من الحكام حتى تثبت صحتها ويتأكد حدوثها، وهو اعتقاد خاطئ، لأن كثيرا من المعجزات لم تكن كذلك، بل إن بعضها لم يكن محل مشاهدة إلا من عدد قليل من الناس، بل وأحيانا من شخص واحد كما هو الحال في معجزة إحياء الطير التي ذبحها إبراهيم عليه السلام، ووزع أجزاءها على الجبال ثم أحياها الله، وكمعجزة إماتة الله العزير ثم إحيائه له هو وحماره، وغير ذلك كثير[٢٤٥].

وهذا في الواقع لا يقلل من شأن المعجزة أو يدعو إلى الشك فيها، فهي تكون عادة موجهة إلى عدد من الناس بقصد إثبات قدرة الله بشكل أو بآخر في مكان وزمان معينين، ذلك لأن أثر المعجزات — وهي بطبيعتها لا تدرك إلا بالحواس- لا يمتد إلى غير الجيل الذي عاينها وتحقق منها، أما الأجيال الأخرى فإن تصديقها بالمعجزة يكون تابعا لإيمانها بالله وبقدرته، فلا يكون وجود ملك أو أكثر، من أسباب تصديقها للمعجزة أو إيمانها بها[٢٤٦].

ومما سبق ذكره خلاف ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن المقصود بالآلهة : الأوثان التي يعبدها قوم الفتية، واتضح تأثرهم بالقصة المسيحية التي تقول إن الفتية كانوا

---

[٢٤٤] ابن عطية، مصدر سابق، ١٠/ ٣٧٠.

[٢٤٥] المجدوب، مرجع سابق، ص١٨٦.

[٢٤٦] المجدوب، مرجع سابق، ص١٨٦.

من الروم ويقيمون في المدينة اليونانية القديمة (أفسوس- Ephesus)، في حين أن الحقيقة خلاف ذلك، فقد كانوا يهودا اعتنقوا المسيحية الصحيحة، وهذا ما أكّده عليه ابن عاشور ما يتعلق بسبب نزول الآية من علْم اليهود بالفتية المؤمنين، وجعلهم العلم بأمرهم أمارة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، يبعد أن يكون هؤلاء من أهل الدين المسيحي، فإن اليهود يتجافون عن كل خبر فيه ذكر المسيحية، فيحتمل أن بعض اليهود أوَوا إلى الكهوف نتيجة في الاضطهادات التي أصابت اليهود، وكانوا يأوون إلى الكهوف[٢٤٧].

وأما قول الفتية: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا﴾ فيفهم منه أنه لم يكن هناك ملك وثني يريد إكراههم على عبادته، أو السجود لتمثاله، وإنما يدل على أن هناك قوم الفتية الذين اتخذوا آلهة مع الله، وهو أمر يصطدم بعقيدة الفتية التي تقوم على عبادة الله الواحد لا يشركون به أحدا، كما فسّر ابن كثير قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ فقال: "يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه، فهربوا منهم فلجأوا إلى غارٍ في جبل ليختفوا عن قومهم"[٢٤٨]، فليس هناك إذن مطاردة من ملك، أو ملاحقة من أعوانه وجنوده لهؤلاء الفتية، فيذكر أحمد المجدوب أنهم كانوا يقيمون مع قومهم في المنطقة الواقعة شرقي نهر الأردن، والتي كانت تخضع لحكم ملك الأنباط، وهو- وإن كان ملكا وثنيا- لم يكن يفرض على من يقيمون في مملكته أن يعبدوا آلهته، والدليل على ذلك أن من بقي من اليهود على يهوديته، ومن آمن بالمسيح بشرا رسولا، ثم بعد ذلك من أمن به ابنا لله وإلها كانوا جميعا يعيشون في دمشق التي كانت خاضعة لحكم الأنباط، وفي غيرها من المدن الواقعة شرقي نهر الأردن دون أن يقع عليهم أي ضغط، أو يوجه إليهم أي عمل من شأنه إكراههم على تغيير عقيدتهم[٢٤٩].

---

[٢٤٧] ابن عاشور، مصدر سابق، ٢٦٤/٧-٢٦٥.

[٢٤٨] ابن كثير، مصدر سابق، ٧٢/٣.

[٢٤٩] المجدوب، مرجع سابق، ص٢٠٨.

وكذلك قال الفتية: ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[٢٥٠]، فسّره ابن عطية على أن ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يجوز أن يكون استثناء منقطع، إذا كان قومهم لا يعرفون الله ولا علم لهم به، وإنما يعتقدون الألوهية في أصنامهم فقط، ويجوز أن يكون استثناء متصلا على ما روي أن قوم الفتية كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه أصنامهم، لأن الاعتزال وقع في كل ما يعبد الكفار إلا في جهة الله تعالى.[٢٥١]

فإذا صحّ هذا، فهو بلا شك صحيح، فإن القول بأن الفتية كانوا من الروم الذين يعبدون الأصنام يتعارض مع هذا المعنى؛ لأن الرومان لم يكونوا يعبدون الله مع آلهتهم الوثنية، بل إن تاريخهم الديني الطويل لم يرد فيه ذكر الله سبحانه وتعالى، على كثرة ما عبدوا من آلهة، ولكن الذين عبدوا الله مع آلهة أخرى هم المسيحيون الذين قالوا: إن عيسى ابن الله وألّهوه، وألّهوا أمه، واتخذوا عقيدة التثليث جاعلين من الله ثالث ثلاثة، ومن ثم فإن قول الفتية: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قصدوا به حصْر العبادة على الله دون المسيح عيسى وأمه مريم عليهما السلام[٢٥٢]، لأن معنى (الاعتزال): التباعد والانفراد عن مخالطة الشيء، ومعنى (اعتزال ما يعبدون): التباعد عن عبادة الإلهين من دون الله سبحانه وتعالى[٢٥٣].

ويرى الدارس في هذا الصدد أنه لأمرٌ عجيب أن يفوت معظم المفسرين ملاحظة الاختلاف الواضح بين قول الفتية المؤمنين: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾، وقولهم: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾، ثم قولهم: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ

---

[٢٥٠] سورة الكهف: الآية ١٦.

[٢٥١] ابن عطية، مصدر سابق، ٣٧٤/١٠.

[٢٥٢] المجدوب، نفس المرجع، ص٢٠٨.

[٢٥٣] ابن عاشور، مصدر سابق، ٢٧٦/٧.

أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾»، فإنه لشدة تسلُّط القصة المسيحية على أفكار المفسرين جعلتهم يذكرون في تفاسيرهم كيف فر الفتية من الملك الوثني، دون أن يبينوا لنا لماذا قال الفتية: «لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا» ومن هو هذا الإله الذي طُولبوا بعبادته، ثم قولهم: «هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً» ودعوتهم بعضهم بعضا إلى اعتزال قومهم وما يعبدون إلا الله، مما يعني أن الله تعالى كان من بين الآلهة التي يعبدها قوم الفتية، فلو صح ما قاله الفتية من أن قومهم يعبدون آلهة مع الله، فإن ذلك يكون متعارضا مع ما قالوه من أنهم دعوا إلى عبادة إله غير الله، وأنهم رفضوا ذلك.[٢٥٤]

وكذلك يلاحظ على ما قاله الفتية: «فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ»، ولم يقولوا ((فأووا إلى كهف))، ويقصدون بذلك كهفا معينا عرفوه وعاينوه، وأدركوا ملائمته لهم وصلاحيته لإيوائهم، كما قال ابن عاشور: والتعريف في الكهف يجوز أن يكون تعريف العهد، بأن كان الكهف معهودا عندهم يتعبدون فيه من قبل، وعلى هذا الاحتمال إشارة منهم إلى سنة النصارى في لجوئهم إلى الكهف للتعبّد[٢٥٥]، وأضاف المجدوب أن هذه المقولة تدل على أنهم كانوا قد اعتادوا التردد عليه وقضاء بعض الوقت فيه، وهذه عادة الأبيونيين الذين كانوا يقيمون بالقرب من المنطقة التي وجد فيها الكهف، وبعكس الروم الذين لم تكن لديهم مثل هذه العادة، فهم أهل الحضارة يعيشون في المدن العامرة، ولا يطيقون حياة الصحراء والعيش في الكهوف[٢٥٦]، وليس هذا فحسب، بل إن اختيار الفتية للكهف لاعتزالهم فيه، لم يكن أمرا أملته الصدفة، ولم يكن تصرفا عشوائيا، وإنما كان بتوجيه من الله سبحانه وتعالى الذي هداهم إليه من أول الأمر، حتى إذا أوَوا إليه يوم يتخذون قرارهم باعتزال قومهم، كان ملائما لهم وللظروف والأحوال التي ستمر بهم أثناء نومهم الطويل.

---

[٢٥٤] المجدوب، مرجع سابق، ص٢١٠.

[٢٥٥] ابن عاشور، مصدر سابق، ٢٧٧/٧.

[٢٥٦] المجدوب، مرجع سابق، ص٢٠٩.

٣-٦ الخلاصة:

تتمثل قصة الفتية المؤمنين مظاهر أساس العقيدة الإسلامية التي تكمن في الإيمان بالله سبحانه وتعالى، من حيث أنواعه الثلاثة، وهي؛ توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات. ومن أبرز مظاهر توحيد الربوبية من خلال القصة إقرار الفتية المؤمنين بربوبية الله، وتتضح ربوبيته سبحانه وتعالى في السنن الإلهية المتعددة، منها سنة الله في الفتنة والابتلاء حيث ابتلاهم الله سبحانه وتعالى باضطهاد قومهم لهم بسبب اختلاف عقيدهم عن عقيدة قومهم. وسنته تعالى في التدافع بين الحق والباطل، وكذلك سنة الله في الأسباب والمسبّبات وغيرها من السنن الجارية في الكون، فقصة الفتية المؤمنين هي قصة الإيمان والثبات في سبيل العقيدة الصحيحة، والتضحية والجهاد، وهي برهان على أن الأسباب خاضعة للإرادة الإلهية، فسبيل المؤمن أن يستميل هذه الإرادة بالإيمان والعمل الصالح، ويستحق نصر الله وتأييده.

وأما مظاهر توحيد الألوهية فيستلزم التوجّه إلى الله وحده بجميع أنواع العبادة وأشكالها، فتبينت الدراسة نوعين من العبادات، هما؛ العبادات التي مناطها القلب، والعبادات التي مناطها الجوارح. أما أبرز العبادات التي مناطها القلب في القصة فتكمن في إخلاصهم العبادة لله عز وجل وتوجّههم بقلوبهم له وحده، وعدم اتّخاذهم معه سبحانه وتعالى ندا في العبادة والمحبة، كما قال تعالى على لسانهم: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢٥٧]، ويقينهم باستجابة الله لهم بعد أن دعَوه سبحانه وتعالى لينشر لهم رحمة منه، وليهيئ لهم من أمرهم رشدا، بدعائهم إياه: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾[٢٥٨]، وتوكّلهم أمرهم لله رب العالمين، وتفويضه لتدبيره عز وجل، وعدم انفكاكهم عن مقام الرجاء لله في الضراء بغية سؤال رحمته وكشف ضرّه، كما قال تعالى

[٢٥٧] سورة الكهف: الآية ١٤.

[٢٥٨] سورة الكهف: الآية ١٠.

على لسانهم :﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾[٢٥٩]، فهذه الآية دليل على استمرار رجائهم لله تعالى وثقتهم به، وقوة صبرهم على مفارقة الأهل والوطن والمال.

وأما أبرز العبادات التي مناطها الجوارح فتكمن في تضرعهم بالذكر والدعاء وسؤال الرحمة والتهيئة في أمرهم رشداً، وقيامهم بالأسباب، وذلك باعتزالهم قومهم بالإيواء إلى الكهف تحفُّظا من اعتداء قومهم عليهم. والتزوّد بما يحتاجون إليه في السفر والهجرة، وأخذ الحيطة والحذر عند الخروج إلى المدينة.

وأما مظاهر توحيد الأسماء والصفات فأبرزها صفة العلم، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾[٢٦٠]، يدلنا على أن مُنزّل هذا القرآن هو الله المحيط علماً بكل شيء، وغيره سبحانه وتعالى لا يعلم شيئا عن الفتية المؤمنين، ومما يرد في قصة الفتية المؤمنين حول إرادة الله ومشيئته قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٢٦١]، ومن أبرز صفات الله تعالى في القصة صفة القدرة حيث أن الله تعالى قادر على إنامة الفتية المؤمنين لمدة طويلة فوق عادة البشر، ثم بعثهم، وهذا إشارة إلى أن الله قادر على أن يبعث الموتى يوم القيامة كما بعث هؤلاء الفتية بعد النوم الطويل الذي يشبه الموت. وكذلك إمالة الشمس عن الكهف أثناء نومهم الطويل عناية لهم، وقذف الرعب في قلوب من اطّلعوا عليهم، وبعثُ الفتية على الهيئة التي ناموا عليها، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾[٢٦٢]. ويدل هذا على كمال قدرته تعالى في تدبير أحوال الفتية المؤمنين. و تسيير الرحمة ونشرها كما قال تعالى:﴿ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ

---

[٢٥٩] سورة الكهف: الآية ١٠.

[٢٦٠] سورة الكهف: الآية ٢٦.

[٢٦١] سورة الكهف: الآية ٢٣-٢٤.

[٢٦٢] سورة الكهف: الآية ١٧.

رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[٢٦٣]، ومن أبرز صفات الله تعالى الهداية والإضلال، يقول الله تعالى:﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾[٢٦٤]، وإنامهم نومة طويلة، يقول الله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾[٢٦٥]. ثم إيقاظهم من النوم الطويل، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾[٢٦٦].

أما مظاهر الشرك الذي يتنافض مع توحيد الله سبحانه وتعالى ففي اتخاذ قوم الفتية المؤمنين آلهة من دون الله، وذلك في قوله تعالى على لسان الفتية المؤمنين سافهين قومهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾[٢٦٧]، بعد أن أعلنوا عقيدهم (أي: الفتية المؤمنون) بقولهم: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾[٢٦٨]. وإن المقصود بالآلهة عيسى عليه السلام وأمه، قاموا بتأليهها، واتخذوهما إلهين من دون الله سبحانه وتعالى، وتمسكوا بعقيدة التثليث التي روّجها بولس، وليس المقصود بالآلهة كما في نظر معظم المفسرين المؤمنين أنها الأوثان التي يعبدها قوم الفتية. والله أعلم.

أما الدروس المستفادة من تحليل أصل الإيمان بالله تعالى في القصة فتظهر في:

(١) صدق التوجه إلى الله سبحانه وتعالى واللجوء إلى كنفه، وحسن الظن به من قبل الفتية المؤمنين، والذي قوبل من الله سبحانه وتعالى بما يتناسب مع رحمته الواسعة الشاملة بعباده المخلصين؛

أ- أوجد الطمأنينة في القلوب، وربط عليها بالسكينة، فأوجد فيها السعة والهدوء والأمان قبل أن يوجد في المحيط الخارجي.

---

[٢٦٣] سورة الكهف: الآية ١٦.

[٢٦٤] سورة الكهف: الآية ١٧.

[٢٦٥] سورة الكهف: الآية ١١ .

[٢٦٦] سورة الكهف: الآية ١٢.

[٢٦٧] سورة الكهف : الآية ١٥.

[٢٦٨] سورة الكهف: الآية ١٤.

ب- هيّأ لهم من أسباب الحماية والدفاع ما تعجز قوى البشر عنه، فسخّر لهم الشمس، ورفع عن أجسادهم آثار تقلب الليل والنهار واختلاف الأجواء، وحماها من الآفات والبلى كما حماها من عبث العابثين، فألقى عليهم الرعب.

(٢) إن العناية الإلهية رافقت أحوال الفتية المؤمنين، وهيّأت الأسباب لإبراز الحكمة العليا من العثور عليهم، فلو لم يحملوا معهم عند الخروج من المدينة شيئاً من العملة لما فكروا بالنزول لشراء الطعام، ولما كان للاستدلال عليهم من سبيل، لو لا شعورهم بالجوع المفاجئ الشديد لما أسرعوا بإرسال الشخص لإحضار ما يسدّ جوعهم، إنها تدابير ربانية سابقة ولاحقة لتخليد ذكرى هذه الواقعة، وبرهان ساطع لمن فكر واعتبر.

(٣) التزام القيم الصحيحة تورث السيرة العطرة، والذكر الحسن في الدنيا، والمثوبة والخلود في جنات النعيم يوم القيامة.

(٤) إن قصة الفتية المؤمنين التي سجلها الله عز وجل لنا في القرآن الكريم نموذج لطلاب الآخرة العازفين عن زينة الحياة الدنيا، ونموذج للدخول في الإسلام كله في أيام الفتنة، ويظهر فيها بجلاء ما تفعله عقيدة التوحيد في نفوس المؤمنين من التعالى على الشهوات، والإخلاص لرب الأرض والسموات، فهي قصة فتية في ريعان الشباب وغلبة الشهوة، ومع ذلك أعرضوا عن زيف الدنيا الزائل، لما كثرت المعاصي ودبّ الشرك، حتى انتصر له أهله بإجبار الناس عليه، كما أشار إليه قوله تعالى على لسانهم: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾، فالإيمان الذي ملأ قلوبهم والهدي الذي أكرمهم به وزادهم هدى، جعلهم

يثقون بأن الله عز وجل سيجعل لهم مخرجا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝﴾[٢٦٩]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[٢٧٠].

[٢٦٩] سورة الطلاق : الآية ٢ –٣.

[٢٧٠] سورة الطلاق: الآية ٨.